

المعاني التربوية في الأربعين النووية (1)



د. محمد عمر بولة¹

مقدمة:

الحمد لله الذي خلق فسوّى، والذي قدّ فهدى. والصلاة والسلام على خير الورى محمد بن عبد الله الذي كان في الرتبة بين الأنبياء أولاً وإن جاء في البعثة آخرها فهو *الجلّي والورّى إلى ورا*¹ وعلى آله الشرفاء، وأصحابه النبلاء، ومن تبعهم من الأخيار والفضلاء. وبعد فليعلّ القراء يتساءلون: لماذا (الأربعون)؟ ومغائدة² استخراج الدروس التربوية من الأربعين النووية؟

الجواب: أولاً: لألأربعين النووية كتابٌ وليٌّ من أولياء الله الصالحين من ضحّ الخلق وصدّع بالحق ونبغ في العلوم وعكف سنين يدرس في اليوم الواحد ما يزيد على عشرة فنون.²

بالجث في منظمة المشكاة الخيرية وجمعية القرآن الكريم . السودان.

1 البيت من مقدمة [في السعود] للشيخ إبراهيم الشنيطي رحمه الله تعالى.

2 فمحيي الدين يحيى بن شرف النووي حافظ من حفاظ الحديث الشريف، كما تجده في (تكررة الحفاظ) للذهبي و(طبقات الحفاظ) للسيوطي وهو فقيه مبرز في فقه الشافعية وصاحب (مجموع شرح المهذب) (ب)، وهو عالم بارع في العربية يشهد لذلك (شرحه لصحيح مسلم) و(تخذيب الأسماء واللغات)، كما أنه إمام في الزهد والورع حتى لقد حبس نفسه عن الفواكه وقال: دمشق كثيرة الأوقاف ولا تطيب نفسي بأكل ذلك، وكان رضي الله عنه يجهر بالصيحة للحكام يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، قال ابن فرج عن النووي: صار إلى ثلاث مراتب، كل مرتبة لو كانت لشخص لشدّت إليه الرحال: العلم، والزهد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقد وضع الله محبته في قلوب المسلمين فأقبلوا على كتبه المباركة مثل (رياض الصالحين) و(الأذكار) و(التيان في آداب حملة القرآن) و(شرح مسلم) و(المجموع) و(التقريب) لمقدمة ابن الصلاح. وقد ذكر النووي رحمه الله أن الله بارك في وقته وذلك ظاهر في آثاره العظيمة وانتفاع الناس به في عصور ووقت يسير لم يتجاوز خمسة وأربعين عاماً إلا بستة أشهر؛ لأنه ولد في محرّم إحدى وثلاثين وستة مائة وتوفي في رجب سنة ست وسبعين وستمائة. ورحم الله التاج السبكي ما أحسن ما ترجم به للحافظ النووي في طبقات الشافعية الكبرى حيث قال: "ليخ العلامة محيي الدين أبو زكريا شيخ الإسلام وأستاذ المتأخرين وحجة الله على اللاحقين والداعي إلى سبيل السالفين. كان يحيى رحمه الله سيداً وحضوراً، وليّاً على النفس ولهولاً لم يبال بخراب الدنيا إذا صير دينه ربيعاً معموراً! له الزهد والقناعة ومتابعة السالفين من أهل السنة والجماعة والمصابرة على أنواع الخير لا يصرّف ساعة في غير طاعة! هذا مع التفدّن في أنواع العلوم؛ فقها ومتوناً أحاديث وأسماء رجال ولغة وصرفاً وغير ذلك؛ وأنا إذا أردت أن أجمل تفاصيل فضله، وأدلّ الخلق على مبلغ مقداره بمختصر القول وقصّ له، لم أزد على يتين أنشدنيهما من لفظه لنفسه الشيخ الإمام (يزيد أباه قاضي القضاة الحافظ العلامة تقي الدين السبكي رحمه الله وقد ترجم التاج لوالده ترجمة تكّتب بماء الذهب بربّ بما أباه رحمه الله)، وكان من حديثهما أنه - أعني الوالد رحمه الله - لما سكن في

ثانياً أنه أحيا سنة المؤمّن السليّمين في تصنيفهم تكبّ الأربعين: قال النووي في مقدمة الأربعين: "وقد ضفّ العلماءُ رحمهم الله في هذا الباب ملجأً صَاحِبَ من المصنّفات، فأولُ من علّمته ه صفّ فيه عبد الله بن المبارثم محمد بن أسلم الطوسي العالم الرّباني ثمّ الحسن بن سفيان النّسوي وأبو بكر الآجُرّي وأبو بكر محمد بن إبراهيم الأصبهاني والدارقطني والحاكم وأبو زعيم وأبو عبد الرحمن السّلمي وأبو سعيد الماليني وأبو عثمان الصابوني وعبد الله بن محمد الأنصاري وأبو بكر البيهقي خلائق لا يُحصون من المتقدّمين والمتأخّرّين. وقد استخرتُ الله في جمع أربعين حديثاً اقتداءً بمؤلّمي الأئمة الأعلام وحفظها فإظ الإسلام".

ثالثاً أنه كتابٌ جامعٌ لأغراضٍ من صنّف في (الأربعين) فلم يقتصر على موضوعٍ واحدٍ بل اشتمل على أصولٍ كثيرةٍ من الفوائد التربوية. قال رحمه الله: "من العلماء من جمع الأربعين في أصول الدين، وبعضهم في الفروع، وبعضهم في الجهاد وبعضهم في الزهد وبعضهم في الآداب وبعضهم في الخطب، وكلها مقاصد صالحة رضي الله عن قاصديها. وقد رأيتُ جمع أربعين أهمّ من هذا كله هي أربعون حديثاً مشتملةً على جميع ذلك وكلُّ حديثٍ منها قاعدةٌ عظيمةٌ من قواعد الدين وقد وصفه العلماء بأفئدة الإسلام عليه، أو هو نصف الإسلام أو ثلثه أو نحو ذلك".

قاعة دار الحديث الأشرفية سنة اثنتين وأربعين وسبعمئة كان يخرج في الليل إلى إيوأها؛ فيتهدّد. وممرّغ وجهه على البساط. فأنشدني الوالد لنفسه:

وفي دار الحديث لطيف معنى على بسط لها أصبو وآوي
عسى أني أمس بحرّ وجهي مكلّنا قدّم النواوي

طبقات الشافعية الكبرى 385/8 - 396.

1 زاد محمد بن جعفر الكتاني رحمه الله جماعة على هؤلاء منهم: إسماعيل بن عبد الغفار الفارسي، وعبد القاهر بن عبد الله الرهاوي، وأبو طاهر السلفي، ومحمد بن أبي الصيف، ومحمد بن محمد بن علي الطائي، ومحمد بن أحمد الفاسي صاحب (شفاء الغرام بأخبار بلد الله الحرام)، وأبو القاسم بن عساكر الذي ألف (الأربعين البلدانية) و(الأربعين الطوال) و(الأربعين في الجهاد)، ومنهم كذلك محمد بن إسحاق الكلاباذي، ومحمد بن إبراهيم المقرئ... رحمة الله عليهم أجمعين. انظر: القللاستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة ص 102 . 104.

رابعاً: كتاب "يسير الفهم، كثير العلقمقد و قَفَّ اللهُ النوويَّ إلى اختيار أحاديثٍ سهلة المعاني فخمة المباني قريبة العبارة بعيدة الإشارة، تجنَّبَ فيها غريب اللغة، حتى يسهل على عامة المسلمين فهمها، ولا يسع أحدا جهلها.

خامساً: به صغيرٌ الحجيم، نُهل على أهل زماننا مدرسته ومُذاكرته، صفحاته قليلة ولكن معانيه نبيلة جليلة. وما قَلْبِي خَيْرٌ مما كَثُرَ وأهْمِي قَلِيلٌ" تدوم على تعهده وترتع في فوائد خيرٍ من كثيرٍ تنقطع عن مطالعته.

وإنَّ طبيعة هذا البحث التربوي لأحاديث الأربعين تقتضي جمعَ الأحاديث المتصلة بموضوعٍ واحيٍ سياقٍ واحدٍ؛ لتكتمل صورتها التربوية في ذهنِ طالب العلم. وهذا يلزم منه تقسيم بعض الأحاديث إلى مكانها الذي يعطيها دلالات تربوية تزيدها بياناً، وتضيف إلى معانيها دليلاً وبرهاناً من قبيل ضمِّ حديث ابن عباس رضي الله عنهما نُهِتِ الأقدامُ وجُمِّتِ الصحفُ) إلى حديث ابن مسعود (وَيَوْمَ رَ بَأْرِعَ كَلِمَاتٍ: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد) فإنَّ معناها التربوي واحدٌ: علاقة الإيمان بالقدر بثمرة التوكل على الله وحده.²

وقد اعتمدتُ في هذا البحث على الترجمة لرواة الأربعين، وبيان فقه الأحاديث، مع العناية بالدروس التربوية المستفادة من (الأربعين النووية). وهي اثنا عشر درساً .

ولعلَّ الناظر في هذه الدروس التربوية في (الأربعين النووية) يرى أنَّها تُمثِّلُ منظومةً أخلاقيةً؛ باهتمامها على أصولٍ عقديَّةٍ: مثل: الإخلاص، ومباحث الإسلام والإيمان، والقدر والتوكل، وتضمنها كذلك بعض النواحي الاجتماعية: كالنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحفاظ على حقوق المسلمين، والتراحم بينهم. واشتغالها على نواحٍ

1 مع بيان ترقيمها في الأربعين؛ جمعاً بين المصلحتين.

2 وقد زاد ابن رجب في أحاديث الأربعين ما بلغ بها الخمسين في [جامع العلوم والحكم]. كما أنَّ لي الأسوة بالعلامة (عباس حسن) فإنه ذكر في مقدمة كتابه القيم [النحو الوافي] أنه يلتزم بتبويب ابن مالك في [الألفية] ولكنه يتصرَّف في ترتيب الأبيات؛ بما يراه مناسباً لغرض البحث والدراسة. والله الموفق.

منهجية، مثل كثرة أبواب الخير، والتحذير من الابتداع في الدين، والتزام الورع، ومراعاة الحقوق والواجبات، والاستقامة والمراقبة والاهتمام بما ينفع.

والفضل بعد الله تعالى للنووي رحمه الله فهو جامعٌ هذه الأحاديث، وصاحب الفقه والنظر؛ وما هذه بأولها **بَكَهَ اسْأَلَى اللهُ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ أَنْ يَجْمَعَنَا بِهِ فِي جَنَّاتٍ وَ فِي هِلْمِ مَرْقَمَةٍ عَعَلْنَا صَمَلًا يَكُ مُقْتَدِرٍ** {القمر 54، 55}.

المبحث الأول: درس (الإخلاص) ويتضمن شرح حديث (الأعمال بالنيات).

الحديث الأول: عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب ¹ قال: سمعت رسول الله **p** يقول: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه). رواه إمامنا الحدّث أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَهَ البخاري الجعفي وأبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري في صحيحيهما اللذين هما أصحّ الكتب المصنّفة.

1 هو شيخ الإسلام وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب بن نُفَيْل العدوي "أسلم بمكة قديماً، وهاجر إلى المدينة قبل رسول الله **p**، وشهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله **p** في الخلافة عشر سنين وخمسة أشهر" تحذيب الكمال لأبي الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزني 317316/21. قال ابن عبد البر: كان إسلامه عزّ أظهر به الإسلام بدعوة النبي **p** الاستيعاب لابن عبد البر 1145/3 نقلًا عن تحقيق الشيخ بشار عواد لتهديب الكمال 322/21. وقد شهد له النبي **p** بالجنة وحدّثه عن قصر له فيها، كما شهد له بالدين والعلم حيث قال عرض عليّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجرد. قائلوا: أو لّت ذلك يا رسول الله؟ قال: الدين) رواه البخاري. وحي **p** بقدره حين قال: (فشرت منه حتى رأيتني يخرج من أظفاري ثم أعطيت فضلي عمر. قائلوا: أو لّت ذلك يا رسول الله؟ قال: العلم) رواه البخاري. وقال النبي **p** (كان في الأمم قبلكم محدّثون فإن يكن في هذه الأمة أحد فعمر بن الخطاب) رواه البخاري قال أبو الحجاج المزني: "نزل القرآن بموافقة في أسرى بدر، وفي الحجاب، وفي تحريم الخمر، وفي مقام إبراهيم" تحذيب الكمال 324/21. وهو الذي نشر الله الإسلام على يديه كما أخبر النبي **p** بذلك قالوا فلم (أرّ عبقرها يغري فرياق) ابن عبد البر: "فتح الله له الفتح بالشام والعراق ومصرودون الدواوين في العطاء، ورتب الناس فيه على سوابقهم، وكان لا يخاف في الله لومة لائم، وهو الذي نورّ شهر الصوم بصلاة الأشفاق فيمأرخ التاريخ من الهجرة التي بأيدي الناس إلى وإلهم أول من سمّي أمير المؤمنين، وهو أول من اتخذ الدرّة، وكان نقش خاتمه (كفى بالموت واعظاً يا عمر)" الاستيعاب 1145/3 - 1150. وقد كان رضي الله عنه شديداً على الكفار رحيماً ميبليّ تضرب بعدله الأمثال، قريب الدفعة، حاضر الفكرة بحسب القرآن ويكي عند آياته معتبراً كما روى البخاري في كتاب الأذان (باب إذا بكى الإمام) قال عبد الله بن شدّ ادبعت نسيح عمر وأنا في آخر الصفوف يقرأ (فما أشكو بثي وحزني إلى الله) تتم بما استهل به الذهبي ترجمة عمر في (تذكرة الحفاظ) قالوا: "لرّ منه الشيطان وأعلم به الإيمان، وأعلن الأذان... وأين مثل أبي حفص؟ فما دار الفلك على شكل عمر!" تذكرة الحفاظ للذهبي 5/1.

على أنه أراد بكونه ثلث العلم أنه أحد القواعد الثلاث التي تُردّ إليها الأحكام عنده، وهي هذا الحديث وحديث (عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ) (الجلال بين¹ والحرام بين²)¹.

المطلب الثاني: المعاني التربوية للحديث:

قلنا وفق الإمام النووي رحمه البلي حُسن اختيار البداية التي يلجُ من خلالها إلى مخاطبة قلوب المسلمين. فذلكم من براعة الاستهلال: أن يبدأ برأس الأمر وباب القبول وأساس الدّين: وهو الإخلاص لله تعالى وهذا يُذكر بصنيع (إمام هذه الصنعة)² البخاري حين ترجم (باب العلم قبل القول والعمل) ذكر فيه قول الله تعالى: (فاعلم أنه لا إله إلا الله)؛ كيف لا وهو للعلماء قدوة في الابتداء بالأعمال بالنيات؟!!

فنخلص من بين معاني الإخلاص إلى هذه المعالم:

[1] ليس الاعتبار لكثرة الأعمال فقد قال إِبْرَاهِيمُ: ﴿أَعْمَلُوا مِنِّي عَمَلِي فَجَعَلْنَا لَهُمُ آيَاتَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الفرقان: 23) وقال ﴿إِنَّ الْمَفْلَسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ ثُمَّ طُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ﴾ رواه مسلم. فلا بدّ من التقوى ليكون للأعمال ثمرة كما قال: ﴿يَخْزِي وَيُخْلِقُ يَجْزِي اللَّهُ مِنَ الْمُقْتَبِينَ﴾ (المائدة: 27).

[2] ليست العبرة كذلك في عظمة هذه الأعمال من حيث هي، أو أنها كبيرة في أعين الناس. فالجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، وأعظم الأعمال أن يقاتل المرء في يَأْتِيهَا أَلَّذِينَ سَبَّلَهُ اللَّهُ لِيُخَسِّلَ اللَّهُ لَكُمْ دِينَكُمْ عَمَلِي تَجْرَارَةً تَنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ

1 ذكر ذلك كله الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في الفتح.

2 لقبه بذلك الحافظ السخاوي في فتح المغيب.

ومن أحسن الأدلة على أنّ العمل القليل ينفع ويضر بحسب نية صاحبه ما رواه مالك والترمذي عن بلال بن الحارث المزني أنّ رسول الله ﷺ قال: (إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه وإنّ الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه) وأصله في البخاري عن أبي هريرة مختصراً ، ونحوه حديث أبي هريرة في الصحيحين (لعبد يتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب) قال النووي: "ومعنيّين" يفكّر أنّها خير أم لا¹

[4] لا يقدر المؤمن على أداء العمل ولكن نيّته منعقدة على ذلك الفعل. فيُكتب له أجره وإن لم يفعله. منّة من الله تعالى وكما. لعلمه سبحانه بصدق نيّة العبد في القيام بالأمر. وقد قال جابر: كنا مع النبي ﷺ في غزاة فقال: (إنّ بالمدينة لرجالاً ما سترتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض) قال النووي: وفي رواية (إلا شركوكم في الأجر). وفي البخاري: (حبسهم العذر).

وما أروع حال البكّائين الذين لم يخرجوا من ديارهم ولم يلقوا عدوّهم ولم يركبوا ظهر فرس أو بعير، ومع ذلك نالوا الرضوان من الله وإلا لجرّ الوقيت لك لتتحدهم لهم قلت
 دُمّا أحممكم عليه تولاوا وأعيئ منهم تفويض من الدمع حزالأناجيدوا ما
 ينفقون {التوبة: 92} وما شأن عثمان ببعيد حيث غاب عن بيعة الرضوان ليخاطب أهل مكة لمكانته وشرفه بينهم؛ فبايع عنه النبي ﷺ وقال: (هذه عن عثمان)!

المطلب الثالث: من علامات الإخلاص:

[1] أن لا يتعصب المرء لنفسه، وأن لا ينتصر. عند الزلل. لكليّة؛ الحق حكر عليه، والصواب خاص به. فذلك من صفات اللبّيّ عليك (وسعدك). والخير بين يديك. والشر ليس إليك). وقد حدّر النبي ﷺ عن إعجاب كلّ ذي رأي برأيه. وذكر أنّ

1 رياض الصالحين. كتاب الأمور المنهي عنها. باب تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان 520.

النصيحة لا ينتفع بها من كانت هذه صفته. وقال الله جلّ وإجلال: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ اتَّقَاةِ اللَّهِ** خَذَتْهُ أَلْعَزَّةُ بِالْإِثْمِ {البقرة: 206}، على حين مدح أوّليّهم بيّأهم **إِنَّمَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** {الفرقان: 73}. ومن هنا قال النبي **ﷺ** (عيمّ بيتي في ربيع الجنّة لمن ترك المرء وإن كان محقاً).¹

ولا شكّ أنّ الإخلاص يقتضي البحث عن الحق والتزامه، ولو كان الحق في رأي المخالف كما قيل: **لَا كَوْنَ ذَنْبًا فِي الْحَقِّ خَيْرٌ** لي من أن أكون رأساً في الباطل). ورحم الله حماد بن زيد حيث قال: "إذا خالفني شعبة تبعته؛ لأنه كان لا يرضى أن يسمع الحديث عشرين مرة وأنا أرضى أن أسمعه مرة".² وما أحسن ما علّقه البلخي من قول عمّار بن ياسر **ت** في باب إفشاء السلام من الإسلام **ك** من جمعهنّ فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار). ورحم الله الحاكم محمد بن عبد الله البَيْع صاحب (المستدرک) فقد بعث إليه الحافظ عبد الغني بن سعيد المصري كتاباً جمع فيه الأوهام التي وقعت للحاكم في (كتاب المدخل) ففرج بها الحاكم لأنّ صاحبه نبّهه إلى الصواب وعرفّه بالحق. و(الدين النصيحة). فطلق الحاكم خبراً بها الناس! وبعث إلى عبد الغني يشكره قال: فعلمت أنه رجل عاقل كما ذكر الذهبي في ترجمته من (سير أعلام النبلاء).

[2] أن لا يقصد المرء الشهرة بين الناس، ولا يرجو استماعهم إليه واجتماعهم عليه. وإن كان ذلك من عاجل بشرى المؤمن إذا أخلص. ولكنه فتنة وهلاك لمن لم يرد به وجه الله لأنّ الله (أغنى الشريكين عن الشرك) ولا يقبل إلا ما كان لوجهه خالصاً؛ فلا يصيب المرء من تعبته ونصبه خيراً كما جاء في الصوم **ب** صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش). ورحم الله أولئك الأخيار الذين سكتوا عن ربيّات الخوف وهم له ما سَابِقُونَ {المؤمنون: 61} مع ذلك تجدهم حريصين على أن لا يعلم قرباتهم إلا ربّ

1 قال النووي حديث صحيح رواه أبو داود بإسناد صحيح. والريم: الضامن. لأبي الصالحين باب حسن الخلق ص [278].

2 تذكرة الحفاظ للذهبي 1/194

عن الشهوات, وحملوها بالقهر على أصناف العبادات, عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة والواقعة على الجوارح, فاستراحت إلى التظاهر بالعلم والعمل, ووجدت مخلصاً من شدة المجاهدة في لذة القبول عند الخلق ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم. فأصابت النفس في ذلك لذة عظيمة؛ فاحتقرت فيها ترك المعاصي والشهوات, واستلانت خشونة المواظبة على العبادات؛ لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات. فهو يظن أنه مخلصٌ لله عز وجل, وقد أثبت في ديوان المناقنين. وهذه مكيدة عظيمة لا يسلم منها إلا المقرَّبون¹.

[4] أن يصبر على الأذى ويتحمّل في سبيل الله العناء؛ رجاء أن ينال القبول والرّضا, وقد قال الشافعي: سمعت محمد بن الحسن يقول: لا يُفلح في هذا الشأن إلا من أقرَّحَ البرُّ قلبه² وقال الذهبي لا "يصبر على الخُلِّ إلا دوديقال ابن معين لمّا رفسه الحافظ أبو نعيم الفضل بن دكين حين امتحنه في قلب الأسانيد: "والله لهذه المربة أحبّ إليّ من كل شيء"³, شعارهم في ذلك قول الشاطبي:

كوقد فيك الكلب يقتصصيه أهلاً يأتلي في نضحهم متبدلاً⁴

وليت شعري هل يصبر أهل الدنيا ثلاثة أيام لا يأكلون ولا يشربون يجرون من درس إلى درس ويجومون على الشيوخ. كما كان شأن البخاري حين أكل العشب في رحلته إلى شيخه آدم بن أبي إياس⁵. وذكر ابن أبي حاتم الرازي أنه كان مع صاحب له يطلبان العلم من شيخ إلى شيخ فاشترى سمكة لم يجدا وقتاً لشوائها. فأكلاها نيئة. وقال: لا يُستطاع العلم براحة الجسد.⁶

1 مختصر منهاج القاصدين ص 229

2 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي 1/ 105.

3 المرجع السابق 1/ 136.

4 مقدمة حرز الأمانى ووجه التهاني (في القراءات السبع المتواترة).

5 راجع ترجمة البخاري في هدي الساري لابن حجر.

6 وقد روى مسلم في صحيحه هذه الكلمة عن يحيى بن أبي كثير في أبواب مواقيت الصلاة.

بل إن المرائي لا يصبر على أدنى أذى يصيبه كما قال تعالى ﴿لِيَمْلِكُنَّ مِنَ الْغَائِبِينَ حَلْفَ عَشْرٍ﴾¹ أصله خيرٌ والله أطهر الملائكة رؤوفان فأحسن أبنته فتنة انقلب على وجهه خسر التليها والآخرة أظلمة أظلمت ران الم بين {الحج: 11}، بل لا يرضى أن يتجاهله الناس، ولا أن يعاملوه كعامة المسلمين وقد عد ابن قدامة هذا من الرياء الخفي فهو إذا رأى الناس أحبّ أن يبدؤوه بالسلام. وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وينشطوا في قضاء حوائجه، ويسامحوه في المعاملة. ويوسعوا له المكائيل قصّر في ذلك مقصّر ثقّل على قلبه، ووجد لذلك استبعادا في نفسه ليتقاضى الاحترام على الطاعة التي أخفاها¹. وأما العبد الصالح فلا يهتم به رضي الخلق أم سخطوا إذا أدى حق الله ورسوله. بل هو متيقن بأن السفهاء لا يرضون بالمعروف أصلاً، ولا يرون لصاحب الخير فضلاً. فلا يبالي بهم بل ينشد مع الزبيدي²:

إذا رضيت عني كرامٍ عشيرتي فلا يزال غَضُّ بنا على لغامها

[5] أن يكون ظاهر القلب من الهوى وبريقاً من حظوظ النفس، حريصاً على مصاحبة الصادقين والتعاون معهم في كل خير، ورحم الله ابن القيم حيث قال: "الأفضل في كل وقت وحال إثارة مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك ووظيفته ومقتضوهؤلاء هم أهل التعمّد المطلقين أصناف قبلهم أهل التعمّد المقيّد. فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلّق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقض وترك عبادته. فهو يعبد الله على وجه واحد وصاحب التعمّد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره. بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانته. أرّ تعبد ه عليها، فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية لهما رفعت له منزلة عمّل على سيره إليها واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخيراً دأبه في السير حتى ينتهي سيره. فإن رأيت العلماء رأيتهم معهم، وإن رأيت العباد رأيتهم معهم وإن رأيت المجاهدين رأيتهم معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيتهم معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيتهم معهم، وإن رأيت أرباب الجمعة وعكوف

1 مختصر منهاج القاصدين ص 239.

2 في مقدمة تاج العروس بشرح جواهر القاموس.

القلب على الله رأيته معهم فهذا هو العبد المطلق الذي لم تملكه الرِّسوم ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه وما فيه لذتها وراحتها من العبادات بل هو على مراد ربه ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه فهذا هو المتحقق بـ(إياك نعبد وإياك نستعين) حقاً القائم بما صدقاً".

[6] يتخلّق بغنى النفس وصفاء السريرة ومحبّة الخير للمسلمين والبعد عن الحسد والبغض، فهذه المعاملات عنوان السلامة من الهوى وأمراض القلوب وعمل النفوس؛ ومن رَهْنًا لِحَافِئِ الثَّيَابِ الْعَظِيمِ وَعَلَى الذُّبُونِ دَعْوَانِ الْإِيمَانِ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَالْأَجْرُ نَجْعًا عَلَى غَيْرِ الْمَوْلَى لَدُنَّ آمَنُوا {الحشر: 10}. وقد ذكر أبو منصور الثعالبي في (خاص الخلفاء) بن محمد الفيض كتب إلى ابن أبي البغل وقد ولي على الأهواز وصرف ابن أبي البغل به وهو أحسن وأبلغ وأظرف وأكرم ما كتب صارف إلى مصر فلهذا يدت العمل بناحيتهك فهناك الله بتجدد ولايتك، فأجابه ابن أبي البغل بما لا يدري أيهما أبلغ وأحملت ثقلت عني نعمة صارت إليك ولا غابت عني منزلة طلعت عليك وإني لأجد صرفي بك ولاية ثانية وصلة من الوزير وافية؛ لما أرجوه بمكانك من العافية وحسن العاقبة".¹

المبحث الثاني: درس (الإسلام والإيمان): ويتضمن شرح الحديث الثاني والثالث:

الحديث الثاني: عن عمر رضي الله عنه أيضاً قال: (بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه. وقال يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال فصدقت؟ قال: فمعجنا له يسأله ويصدقه! قال فأخبرني عن

1 خاص الخاص للثعالبي ص 10

2 يري: هكذا بضم الياء المشاة من تحت وذكر الإمام النووي رواية أخرى نرى. بالنون المفتوحة. وعزاها إلى مسند أبي يعلى الموصلي وقال: "كلاهما صحيح" [شرح النووي على مسلم 157/1].

الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال ضدقت. قال فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أمّ أمتنا؟ قال: أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة ععاءً ألقاء يتناولون في البنيان. قال: ثم انطلق فلبث³ ملياً ثم قال لي: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل؛ أتاكم يعلمكم دينكم) رواه مسلم.⁴

الحديث الثالث: عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما⁵ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يُخبرني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله

¹ العالة: قال النووي هم الفقراء. والعائل الفقوالع. لمة الفقر [شرح النووي على مسلم 254/1] وقد قال الله تعالى: ﴿لَوْ فَتَمَّ عَيْلَةً فَسَدَّ وَسْمُهَا فَكَانَ فَضْلًا مِنْهُ﴾ (التوبة: 28).

² الرعاء: بكسر الراء وبالمد ويقال فيهم: عاة بضم الراء وزيادة الهاء بلا مد [شرح النووي 159/1].

³ فلبث: أو فلبثت: روايتان في مسلم قال النووي: "وكلاهما صحيح" [160/1].

⁴ لطيفة: يلاحظها هنا دقة النووي في الإحالة: فقد عزا حديث جبريل عليه السلام إلى مسلم، مع علمه بأن أصل الحديث متفق عليه؛ إذ جاء في البخاري سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان. وترجم في كتاب الإيمان (باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبي ﷺ ذلك) ولكن النووي رحمه الله باقتصاره على عزو الحديث إلى مسلم يهتبه هنا إلى أن الذي في البخاري مغاير لهذا، فهذا من رواية عمر. وذلك من رواية أبي هريرة. وهذا فيه التصريح بالقدر، وذلك فيه بدلا عن هذا (وبلغائه) وهذا يبدأ بالترتيب ولعل النووي يرضيه مثل الطيبي لما فيه من الترقى من الإسلام إلى الإيمان إلى الإحسان. والله أعلم.

⁵ عبد الله بن عمر بن الخطاب "أحد الأعلام في العلم والعمل. شهد الخندق وهو من أهل بيعة الرضوان، وممن كان يصلح للخلافة" تذكرة الحفاظ 37/1. وشهد له النبي ﷺ بالصلاح كما جاء في رواية شقيقته حفصة رضي الله عنهما في صحيح البخاري في قيام الليل والفضائل والتعبير. وروى المزني عن ابن مسعود قوله إن من أملك شباب قريش لنفسه عن الدنيا عبد الله بن عمر" وعن جابر قوله "ما من أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها إلا عبد الله بن عمر" وعن سعيد بن المسيب قوله: "مات ابن عمر يوم مات، وما أحد أحب إليّ أن ألقى الله بمثل عمله" تهذيب الكمال 339/15. وكان آية في التمسك بسنة النبي ﷺ وتتبع الآثار المباركة، كما قال مالك "قال لي ابن شهاب: لا تعدلن برأي ابن عمر؛ فإنه أقام سنتين سنة بعد رسول الله ﷺ يخف عليه شيء من أمره ولا من أمر أصحابه" تذكرة الحفاظ 39/1. وقال يحيى بن يحيى التميمي قلت لمالئيفن قلت سمعت المشايخ يقولون: أخذ يقول ابن عمر لم يدع من الاستقصاء شيئا؟ قال: نعم. المرجع السابق وذكر نافع أن عبد الله بن عمر تبع أمر رسول الله ﷺ وأثاره وأفعاله حتى أنه يخف على عقله" المرجع السابق. وقد كان صادقا مع الله، صادقا بالحق لا يخاف في الله لومة لائم، كما روى الذهبي أن الحجاج خطب فقال: إن ابن الزبير بدل كلام الله. فقال ابن عمر كذبت. لم يكن ابن الزبير يستطيع أن يبدل كلام الله. ولا أنت قال: إنك شيخ مدقحرت. افعد أقالئك لو عدت عدت. المرجع نفسه. وروى أن ابن عمر "قام والحجاج يخطب فقال غدو اللئامستحل حرم الله، وخرب بيت الله، وقتل أولياء الله" فقال الحجاج: من هذا؟ فقيل: عبد الله بن عمر. فقال: اسكت يا شيخ! قد عرفتم ما صدر الحجاج أمر بعض الأعوان فأخذ حرية مسمومة فضرب بها رجل عبد الله بن عمر فمضت ومات منها، ودخل عليه الحجاج عائدا فسلم ولم يرد عليه وكلمه فلم يجبه. أخرجه البخاري مختصرا "المرجع نفسه وقد توفي رحمه الله تعالى سنة أربعين وأربعين. ما بين حيا وود: "أنا نعي ابن عمر ويح جلس ابن عمر فقللي، ابن عمر يز: والله إن كنت لأعد بقاء ابن عمر أماتا لأهل الأرض" تهذيب الكمال 340/15. 341. ورحم الله الحافظ الذهبي ما أطف ما ذكره عند ترجمته في (تذكرة الحفاظ) فقال: "ما ذكر ابن عمر رسول الله ﷺ قط إلا بكى! وما مر على ربهما إلا غمض عينه!" وما أحسن قول سفيان الثوري: "تعدى بعمر في الجماعة، وبابنه في الفرقة" التذكرة 38/1.

وأنّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وحجّ البيت، وصوم رمضان). رواه البخاري ومسلم.

المطلب الأول: فقه الحديثين: ¹

[1] صفة النبي ρ في مجلسه: فقد جاء في مسلم من حديث عمر τ (بينما نحن عند رسول الله ρ) وجاء في البخاري من حديث أبي هريرة τ (كان النبي ρ يوماً بارزاً للناس). والمراد هنا التوفيق بين كون النبي ρ لا يتميّز عن أصحابه، وبين معرفة هذا الغريب له بغضّ النظر عمّا سيُكشف في آخر الحديث من أنّ السائل جبريل عليه السلام، قال الحافظ ابن حجر في شرح حديث البخاري في كتاب الإيمان (كان النبي ρ بارزاً يوماً للناس) أي ظاهراً لهم غير محتجب عنهم ولا ملتبس بغيره. والبروز الظهور. وقد وقع في رواية أبي فروة ² التي أشرنا إليها بيان ذلك؛ فإنّ أوله (كان رسول الله ρ يجلس بين أصحابه فيجيء الغريب فلا يدري أيّهم هو. فطلبنا إليه أن نجعل له مجلساً يعرفه الغريب إذا أتاه. قال: فبيننا له دكاناً من طين يجلس عليه)؛ واستنبط منه القرطبي استحباب جلوس العالم بمكان يختص به ويكون مرتفعاً إذا احتاج لذلك لضرورة تعليم ونحوه" ³.

[2] صفة السائل: وقد جاء وصف عمر τ دقيقاً. وهكذا ينبغي للمسلم أن يكون ذا ملاحظة وفطنة وانتباه ذهن وحضور فكرة بحيث يصير ذلك له ملكة. ففي كتاب التفسير من البخاري (إذ أتاه رجل يمشي) ولأبي فروة: (إنّما جلوس عنده إذ أقبل رجل أحسن الناس وجهها وأطيب الناس ريحاً؛ كأنّ ثيابه لم يمسه دنس) وفي مسلم (طلع علينا

1 باعتبار الحديث الثاني مذكوراً في مطلع الحديث الأول: فهو مطابق للقسم الأول منه؛ وبذلك ستم دراسته مع حديث جبريل عليه السلام، ويدلّ على أن مورد حديث بل عمر وأبيه رضي الله عنهما واحد استهلال ابن تيمية رحمه الله كتاب الإيمان بدينك الحديثين، فقال: أعلم أنّ الإيمان والإسلام يجتمع فيهما الدين كله" كتاب الإيمان ص 7. وذكر أنّ "اسم الإيمان تارة يذكر مفرداً غير مقرون باسم الإسلام ولا باسم العمل الصالح ولا غيرهما. وتارة يذكر مقروناً إما بالإسلام كقوله في حديث جبريل (ما الإسلام؟ ما الإيمان؟) وقوله تعالى (إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات...)" كتاب الإيمان ص 14.

2 ذكر الحافظ رحمه الله أنّها عند أبي داود والنسائي وقد أحال الحديث على مظاهره بما لا مزيد عليه رحمه الله رحمة واسعة وجزاه خير الجزاء عن خدمة حديث رسول الله ρ . وصلق من أنشد في ابن حجر: إذا قالت حزام فصلقوها فإنّ القول ما قالت حرام!

رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر) وفي رواية ابن حبان (سواد اللحية)¹ لا يرى عليه أثر السفر). وهذه أوصاف لهيئة الرجل ثم ثنى τ بوصفه بأنه ليس من أهل البلد (لا يعرفه منا أحد) وفي رواية لسليمان التيمي (ليس عليه سحناء السفر؛ وليس من البلد) قال ابن حجر: "فإن قيل: كيف عرف عمر أنه لم يعرفه منهم أحد؟ أجيب بأنه يحتمل أن يكون استند في ذلك إلى ظنه، أو إلى صريح قول الحاضرين. قلت: وهذا الثاني أولى، فقد جاء كذلك في رواية عثمان بن غياث، فإنّ فيها: (فنظر القوم بعضهم إلى بعض؛ فقالوا: ما نعرف هذا)".²

ولم يفت عمر أن يصف لنا طريقة جلوسه، فقد (جلس إلى النبي ρ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيّه على فخذيّه) ووصف لحركاته وسكّناته. وقد جرى خلاف بين شُرّاح الحديث في مرجع الضمير في (فخذيّه)، فقال النوويّيناه "أنّ الرّجل الدّاخل وضع كفيّه على فخذيّ نفسه، وجلس على هيئة المتعلّم".³ والصواب مع من رآه للضمير إلى النبي ρ كما احتج على ذلك ابن حجر برواية سليمان التيمي في صحيح ابن خزيمة: (تخطّى حتى برك بين يدي النبي ρ كما يجلس أحدنا في الصلاة ثم وضع يده على ركبتي النبي ρ). وكذا في حديث ابن عباس وأبي عامر الأشعري: (ثم وضع يديه على ركبتي النبي ρ). فأفادت هذه الرواية أنّ الضمير في قوله (على فخذيّه) يعود على النبي ρ، وبه جزم البغوي وإسماعيل التيمي لهذه الرواية ورجح الطيبي بحثاً؛ لأنّه نسق الكلام خلافاً لما جزم به النووي ووافق التوربشتي؛ لأنّه حمّله على أنه جلس كههيئة المتعلّم بين يدي من تعلّم منه. وهذا وإن كان ظاهراً من السياق، ولكن وضعه يديه على فخذي النبي ρ مع منبه للإصغاء إليه".⁴

1 المرجع السابق

2 المرجع نفسه.

3 شرح النووي على مسلم 157/1

4 فتح الباري 160/1

[3] صفة الحاضرين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم: وهي صفة استغراب وتعجّب من هذا الرجل الغريب الذي لا يرى عليه أثر السفر! والمألوف أنّ الغريب يأتي من السفر، وللسفر وعناء وحال المسافر عادةً (أشعث أغبر). وزاد في استغرابهم أنه يسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان ثم يقول: صدقت؛ فذلك قول عمر: (فعبنا له يسأله ويصدقه). قال النووي نسب تعجّب بهم أنّ هذا خلاف عادة السائل الجاهل، إنما هذا كلام خبير بالمسؤول عنه. ولم يكن في لك الوقت من يعلم هذا غير النبي ﷺ¹ وقد أفاد الحافظ ابن حجر بذكر روايات عدّة في بيان هذا الاستغراب منها رواية أبي فروة (فلما سمعنا قول الرجل صدقت أنكرناها) رواية مطر الورّاق² (نظروا إليه كيف يسأله وانظروا إليه كيف يصدّقاه!) وفي رواية أنس (نظروا وهو يسأله وهو يصدّقاه كأنه أعلم منه)³ وفي رواية سليمان بن برة يمدّه (قال القوم: ما رأينا رجلاً مثل هذا كأنه يعلم رسول الله ﷺ يقول له: صدقت صدقت⁴) قال القرطبي: إن تعجّبوا من ذلك؛ لأن ما جاء به النبي ﷺ لا يعرف إلا من جهته، وليس هذا السائل ممن عرف بقاء النبي ﷺ ولا بالسماع منه، ثم هو يسأل سؤال عارف بما يسأل عنه؛ لأنه يخبره بأنه صادق فيفتعجّبوا من ذلك تعجّب المستعجب له⁵.

1 شرح النووي 157/1

2 ذكر الحافظ أنّها في صحيح أبي عوانة.

3 عند البزار، والبخاري في خلق أفعال العباد.

4 عند أحمد.

5 فتح الباري 165/1

المطلب الثاني: العلاقة بين الإسلام والإيمان:

وهذا بابٌ "اتسع فيه الخلاف بين العلماء في التسوية بين اللفظين¹ على أدلة فأخبرنا، جنهنا قوله تعالى: ﴿إِن فِيهَا مَا مَفَنَّا بِالْوَعْدِ مَدْنَيْنِ﴾ فيها ما غير ربّيت من المسلمة بين {الذاريات: 35-36} وقوله عز وجل: ﴿وَجَاءَتْ بِرَءِيفٍ رَّالِاسْمِ بِلَادِنَا فَلَئِن يُقْبَلْ مِنْهُ﴾ {آل عمران: 85} وقول النبي ρ: (هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)؛ قال البخاري: "فجعل ذلك كله ديواناً بين النبي ρ لوفد عبد القيس من الإيمان" حيث فسّر به الإسلام هنا.¹ وهذا اختيار المزني أيضاً من أصحاب الشافعي ولا شك أن التفريق في هذا الحديث ظاهر بين لفظ الإسلام والإيمان كما ذكره كثير من الشرّاح، قال ابن رجب: "فأما الإسلام فقد فسّره النبي ρ في هذا الحديث بالاعتقادات الباطنة"² ويؤدده قوله تعالى: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ قُلُوبٌ فَكَيْفَ يُؤْمِنُونَ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَلِدْ غُلَا يُؤْمِنُونَ فِي قُلُوبِكُمْ {الحجرات: 14}.

فكان لا بدّ من التوفيق بين هذه الأدلة المتعارضة. وهذا ما صنعه الخطابي رحمه الله حيث قال: "لنصحیح من ذلك أن يقيّد الكلام في هذا ولا يُلَقَّ؛ وذلك أن المسلم قد يكون مؤمناً في بعض الأحوال ولا يكون مؤمناً في بعضه للمؤمن مسلم في جميع الأحوال؛ فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً، حملت الأمر على هذا استقام لك تأويل الآيات، واعتدل القول فيها، ولم يختلف شيء منها. وأصل الإيمان التصديق وأصل الإسلام الاستسلام والقبول؛ فقد يكون المرء مستسلماً الظاهر غير منقاد في الباطن، وقد يكون صادقاً في الباطن غير منقاد في الظاهر"³.

وقال الحسين بن مسعود البغدادي في حديث جبريل عليه السلام عن الإيمان والإسلام "جعل النبي ρ الإسلام اسماً لما ظهر من الأعمال، وجعل الإيمان اسماً لما بطن من

1 فتح الباري 157/1

2 جامع العلوم والحكم ص 36. 38

3 نقله النووي وذكره ابن رجب وابن حجر مختصراً.

الاعتقاد؛ وليس ذلك لأنّ الأعمال ليست من الإيمان¹، والتصديق بالقلب ليس من الإسلام، بل ذلك تفصيل لجملة هي كلها شيء واحده. قال: "وذلك قال: (ذلك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم). والتصديق والعمل يتناولهما اسم الإيمان والإسلام جميعاً؛ فأخبر سبحانه أنّ الدين الذي رضيه وقبله من عباده هو الإسلام، ولا يكون الدين في محلّ القبول والرضا إلا بانضمام التصديق إلى العمل"².

وقال أبو عمرو بن الصلاح: "هذا بيان لأصل الإيمان وهو التصديق الباطن، وبيان لأصل الإسلام وهو الاستسلام والانقياد الظاهر. وحكم الإسلام في الظاهر ثبت بالشهادتين؛ وإنما أضاف إليها الصلاة والزكاة والحج والصوم؛ لكونها أظهر شعائر الإسلام وأعظمها. وبقيامه بها يتم استسلامه، وتركه لها يشعر بالخلل قيد انقياده أو اختلاله. ثم إنّ اسم الإيمان يتناول ما فسّر به الإسلام في هذا الحديث، وسائر الطاعات لكونها ثمرات للتصديق الباطن الذي هو أصل الإيمان، ومقويات متممات وحافظات له؛ ولهذا فسّر الرّوخان في حديث وفد عبد القيس بالشهادتين والصلاة والزكاة وصوم رمضان وإعطاء الخمس من المغنم؛ ولهذا لا يقع اسم المؤمن على من ارتكب كبيرة أو بللّ فريضةً لأنّ اسم اليثوم مطلقاً يقع على الكامل منه ولا يستعمل في الناقص ظاهراً إلا بقيد؛ ولذلك جاز إطلاق نفيه عنه من قوله: (لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن). واسم الإسلام أيضاً يتناول ما هو أصل الإيمان وهو التصديق الباطن، ويتناول أصل الطاعات. فإنّ ذلك كله استسلام. قال: "فخرج ممّا ذكرناه وحققناه أنّ الإيمان والإسلام يجتمعان ويفترقان، وإنّ كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمن"³.

1 راجع في مسألة دخول العمل في مسمى الإيمان كتاب البرهان على أنّ تارك العمل اختياراً فاقد لأصل الإيمان وأنّ الكفر كما يكون بالقلب يكون بالعمل واللسان للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق. وكتاب [توسط والاقتصاد في أنّ الكفر يكون بالقول أو الفعل أو الاعتقاد] لعلوي بن عبد القادر السقاف. وقد اعتمدت سلف هذه الأمة بهذه المباحث العظيمة التي يبني إسلام العبد عليها ويتحقق إيمانه بالإتيان بها؛ ومن هنا رموا بالبدعة من أخطأ فيها من المرجحة والقدرية والخارجية. ورحم الله ابن رجب حيث قال: "هذه المسائل - أعني مسائل الإسلام والإيمان والكفريات مسائل عظيمة جداً؛ فإنّ الله عز وجل علّق بهذه الأسماء السعادة والشقاوة واستحقاق الجنة والنار... جامع العلوم والحكم ص 43.

2 شرح النووي 145/1

3 نقله النووي في شرحه على مسلم 147 / 1 . 148

وقال ابن رجب: "وجه الجمع بين هذه النصوص وبين سؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان وتفريق النبي ﷺ بينهما وإدخاله الأعمال في مسمى الإسلام دون مسمى الإيمان فإنه يتّضح بتقرير أصوله، أنّ من الأسماء ما يكون شاملاً لمسميات متعدّدة عند إفراده وإطلاقها إذا قرُن ذلك الاسمُ بغيره صار دالاً على بعض تلك المسميات، والاسم المقرون به دالاً على باقيها. وهذا كاسم الفقير والمسكين. فإذا أُفرد أحدهما دخل فيه كلُّ محتاجٍ فإذا قرُن أحدهما بالآخر دلَّ أحدُ الاسمين على بعض أنواع ذوي الحاجات، والآخر على باقيها. فهكذا اسم الإسلام والإيمان إذا أُفرد أحدهما دخل فيه الآخرُ ببدلٍ بانفراده على ما يدلُّ عليه الآخرُ بانفراده. فإذا قرُن بينهما دلَّ أحدهما على بعض ما يدلُّ عليه الآخرُ بانفراده ببدلٍ الآخر على الباقي قد صرَّح بهذا المعنى جماعة من الأئمة. قال أبو بكر الإسماعيلي في رسالته لأهل الجبل: "قال كثير من أهل السنة والجماعة: إنّ الإيمان قول وعمل، والإسلام فعل ما فرض الله على الإنسان أن يفعله. إذا ذُكر كل اسم على حدّته مضموماً إلى الآخر، فقول: (المؤمنون والمسلمون) جميعاً فرُدَّين أريد بأحدهما معطياً رَدَّ به الآخر وإذا ذُكر الاسمين شمل الكلَّ وعمَّهم"، وأشار إلى كلام الخطابي في معالم السنن.¹

وقال ابن رجب في موضع آخر: "قال المحققون من العلماء (كل مؤمن مسلم) فإنَّ من حقق الإيمان ورسخ في قلبه، قام بأعمال الإسلام كما قال رسول الله ﷺ: (ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلُحت صلُح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)؛ فلا يتحقق القلب بالإيمان إلا وتنبعث الجوارح في أعمال الإسلام، (وليس كل مسلم مؤمناً) فإنه قد يكون الإيمان ضعيفاً؛ فلا يتحقق القلب به تحقّقاً تاماً، مع عمل جوارحه بأعمال الإسلام، فيكون مسلماً. وليس بمؤمن الإيمان التام كما قال تعالى: (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) الآية؛ فلم يكونوا منافقين بالكلية. على أصح التفسيرين، وهو قول ابن عباس وغيره - بل كان إيمانهم ضعيفاً، ويدلُّ عليه قوله

1 جامع العلوم والحكم ص 45، كلامٌ نفيسٌ .

وَإِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَكَمَ اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذَا أَتَاكُمْ أَحْقَابَسُ مِنَ السَّمَاءِ (الحجرات:14) يعني: لا ينقصكم من أجورها؛ فدلّ على أنّ معهم من الإيمان ما يقبل به أعمالهم. وكذلك قول النبي p لسعد بن أبي وقاص لما قال لله: (عَطِرٌ فلانا وهو مؤمن؟ فقال النبي p: أو مسلم) يشير إلى أنه لم يحقّق مقامَ الإيمان وإنما هو مقامُ الإسلام الظاهر. ولا ريب أنه متى ضعف الإيمان الباطن؛ لزم منه ضعف أعمال الجوارح الظاهرة أيضاً².

ولكن الفضل في هذا التحقيق النافع يعود إلى أبي سليمان الخطابي رحمه الله فإنه سبق بعقله البارِع إلى هذا الفهم الواسع ورحم الله القائل:

ولكن بَكَتْ قَلْبِي فَهَيَّجَ لِي الْبُكَاءُ بِكَاهَا فَقَلْتُ لِفَضْلٍ لِّلْمُتَقَدِّمِ³

المطلب الثالث: من علامات الساعة اختلال القيم وتوسيد الأمور إلى غير أهلها:

وقد أشير إلى ذلك بأمرتين في الحديث: أولاهما (تلد الأمّة ربتها)، وفي رواية: (ربها) أي مالكتها وسيدها. والمراد من ذلك: أن يكثر العقوق في الأولاد؛ فيعامل الولد أمّه معاملة لسيّد أمته من الإهانة والسبّ والضرب والامتخدام؛ فأطلق عليه (ربها) مجازاً للدلالة على الرّبّ المربّيّ فيكون حقيقة، قال ابن حجر رحمه الله بعد أن ذكر ثلاثة أوجه غيورها: "جاءه الأوجه عندي لعمومه، ولأنّ المقام يدلّ على حالة تكون مع كونها تدلّ على فساد الأحوال. مستغربة ومحصّلة لإشارة إلى أنّ الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور بحيث يصير المرء مرئياً والسافل عالياً وهو مناسب لقوله في العلامة الأخرى: (أن تصير الحفاة ملوك الأرض)"⁴.

1 رواه البخاري ومسلم، وترجم البخاري ترجمة نفيسة في كتاب الإيمان (باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة، وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل لقوله تعالى (قالت الأعراب أمانا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) فإذا كان على الحقيقة فهو على قوله جل ذكره (إن الدين عند الله الإسلام).

2 جامع العلوم والحكم ص 41. 42.

3 صدق. والله. الشيخ عبد الفتاح أبو غدة حيث قال: ما ترك لنا الأوائل شيئاً نفتخر به!

4 منها يخلدت عند سبي ذراري المشركين. في الفتوحات. من استيلاء الجوّاري حتى يكون ولد الجارية بمنزلة ربحاً لأنه ولد سيدها، ومثل بيع أمهات الأولاد فيتداول الملاك المستولدة حتى يشتريها ولدها ولا يشعر بذلك لأنها أن تلد الأمة حرّاً من غير سيدها بوطء شبهة أو رقيقاً بنكاح أو زناً ثم تدور في الأيدي حتى يشتريها ابنها أو ابنتها. [راجع تفصيل ذلك في فتح الباري 1/167]

والأمانة الأخرى: (أن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان)، وقد "زاد الإسماعيلي في روايته لطمّ سم البكم" قيل لهم ذلك؛ مبالغةً في وصفهم بالجهل، أي لم يستعملوا أسماعهم ولا أبصارهم في شيءٍ من أمر دينهم وإن كانت حواسهم سليمة".¹ وقال ابن رجب: "مضمون ما ذكر من أشراف الساعة في هذا الحديث يرجع إلى أن الأمور تُورسُ سُدّاً إلى غير أهلها كما قال النبي ﷺ: (وَسُدُّ الْأُمْرِ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ)؛ فإنه إذا صار الحُفَاةُ العُراةُ العالة رعاء الشاء. وهم أهلُ الجهل والجفاء. رؤوسُ الناس وأصحاب الثروة والأموالِ حتى يتطاولوا في البنيان؛ فإنه يفسد بذلك نظام الدين والدنيا".²

ورحم الله الإمام القرطبي؛ فكأنما تكلم بلسان أهل عصرنا حيث قال: "المقصود الإخبارُ عن تبدلِ الحالِ أن يستولي أهلُ البادية على الأمر، ويتملكوا البلاد بالقهر؛ فتكثر أموالهم وتنصرف همهم إلى تشييد البنيان، والتفاخر به وقد شاهدنا ذلك في هذه الأزمان".³

المطلب الرابع: المعاني التربوية:

[1] ينبغي على المتعلّم التخلّق بحسن الأدب في الإقبال على شيخه إصغاءً وانتباهاً، وما يتبع ذلك من خفض الجناح له تواضعاً وإجلالاً، وإظهار التعظيم له في المخاطبة والنداء⁴ وفي كل معاملة، كما كان حماد بن زيد يقول: "حدّثنا الضخم عن الضخام، شعبة الخير أبو بسطام"⁵؛ فإنّ فضل الشيخ على الطالب كفضل الوالد. وبركة الانتفاع بمنهولة⁶ بيرة وإكرامه وقضاء حوائجِه، وفي الصحيح صور⁷ من ثمار أدب طالب

1 فتح الباري 168/1

2 جامع العلوم والحكم ص 57

3 نقله الحافظ في الفتح 169/1

4 يُقال: إن ظاهر الحديث على خلاف ذلك؛ إذ جاء الخطاب ب(يا محمد). فقد ذكر القرطبي وابن حجر أنّ هذا من باب التعمية على الحاضرين حتى يقولوا عندهم أنه من الأعراب. وقد جاء في كتاب التفسير من البخاري (يا رسول الله ما الإيمان؟) وذكر ابن حجر أنّ السائل بدأ بالسلام كما جاء في رواية أبي عروة (السلام عليك يا محمد) وفي رواية عطاء عن ابن عمر (السلام عليك يا رسول الله) وفي رواية مطر الوراق (يا رسول الله أدنو منك؟ قال: ن). [فتح الباري 160/1].

5 تذكرة الحفاظ للذهبي 194/1

العلم مع العالم كما ترى ذلك في دعاء النبي ρ لابن عباس رضي الله عنهما بالفقه في الدين ومعرفة التأويل، ولأبي هريرة τ بالحفظ فلا ينسى، ولأنس τ بطول العمر وكثرة البنين وسعة الرزق.

ولا ريب أنّ ترجمته البخاري في كتاب الدعوات (دعوة النبي ρ لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله) خير دليل على هذا المعنى التربوي. وقد روى الخطيب في [الجامع] عن سعيد بن جبير قوله "كان ابن عباس يحدثني بحديثي يأذن لي أن أقبل رأسه لقبّ لته"¹ وعن ثابت البُناني: "قلت لأنس: أعطني عينيك اللتين رأيت بهما رسول الله ρ حتى أقبل لهما"². وعن البخاري ما "رأيتُ أحدا أوقر للمحدثين من يحيى بن معين"³. وعن المغيرة "كنا نحاب إبراهيم كلمي هاب الأمير"⁴.

[2] أدب العالم في التواضع لطلاب العلم والصّفّح عما يبدو من جفاء بعضهم؛ فإنّ من لم يأخذ عن أهل العلم لا يكاد ينجو من زعارة في الطّبع وحساسة في اللفظ وجفوة في المعاملة ورغبة في المجادلة وولوع بالمناظرة؛ لأنّ الجهل يغلب على نفسه فيمنعهم الرّفق ويسارع بها إلى الغلوّ وهذه صفة المنبتّ الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، وصفة الخوارج الذين يحقر المؤمنون أعمالهم إلى أعمالهم؛ فإنهم (بمروقون من الدين كما يبرق السهم من الرّميّة).

وهذا بخلاف من عرّف جهله بين العلماء واحتقر عمله حين اطلّع على حال النبلاء، أدركه هوان أمره إذا شاهد رسوخ الفضلاء في العلم والعمل؛ فتكسبه هذه المعارف لينا في الجانب ورقّة في الحاشية ولطفاً في العبارة؛ حتى يصير موطأ الأكناف. فإنّ الطالب لا يستفيد من علمه حتى يكتسب هذه الخصال. وذلك من أسرار (ما كان الفرق في شيء

1 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 190/1

2 المرجع السابق 191/1.

3 المرجع نفسه 183/1.

4 المرجع نفسه 184/1.

إلا زانه وما نزع عن شيء إلا شأنه). وقد ربط النبي ﷺ بين الإيمان والحكمة ولين القلب ورقة الأفتدة، فقال ﴿لَا كَلِمَ أَهْلُ الْيَمَنِ هُمْ أَلَيْنَ النَّاسِ قَلُوبًا وَأَرْقَهُمْ أَفْتَدَةً﴾. الإيمان يمان والحكمة يملّقة) كان من شأن العلماء الرّبانين أنّهم يتألّفون الناس على أعمال الخير؛ فيُحسنون إليهم ليعتادوا على البرّ ويُقبلوا على العلم، كما ذكر الخطيب البغدادي عن الزهري أنه قال: "كان عروة¹ يتألّف الناس على حديثه"². وقد أفاد الحافظ ابن حجر³ أنّ في حديث جبريل عليه السلام إشارة لما ينبغي للمسؤول من التواضع والصّحّ عمّا يبدو من مآل السائل"⁴.

المبحث الثالث: درس (القدر والتوكّل):

ويتضمّن شرح الحديث الرابع، والحديث التاسع عشر.

الحديث الرابع: عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود⁵ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصطفى (حدّكم يجرّ مع خلقه في بطن أمّه أربعين يوماً نطفة. ثم

1 عروة بن الزبير بن العوام. تفقه بخالته عائشة وكان علماً حافظاً ثباتاً. قال الزهري: رأيتُه بحراً لا ينزف. مات سنة أربع وتسعين [تذكرة الحافظ 62/1].

2 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 340/1

3 فتح الباري 160/1

4 ولا بد من الاعتذار عن الإطالة؛ فإنما كان ذلك لكثرة فوائد؛ ورحم الله عياضاً وابن حجر فقد طوّلا في هذا الموضوع واعتدرا رضي الله عنهما. قال عياض: "اشتمل هذا الحديث على بيحوظائف العبادات والظاهر والباطنة من عقود الإيمان ابتداءً وحالاً ومآلاً ومن أعمال الجوارح ومن إخلاص السرائر والتحفّظ من آفات الأعمال؛ حتى إن علوم الشريعة كلّها راجعة إليه، ومتشعبة منه". قال ابن حجر: "ولهذا أشيعت القول في الكلام عليه، مع أنّ الذي ذكرته. وإن كان كثيراً لكنه بالنسبة لما يتضمّنه قليل!"

5 هو عبد الله بن أمّ عبد: أول من ترجم له الذهبي في (تذكرة الحافظ) بعد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين، فقال: "صاحب رسول الله ﷺ خادمه وأحد السابقين الأولين، ومن كبار البدرين، ومن نبلاء الفقهاء والمقرّنين" تذكرة الحافظ 13/1. وقال المزي: "أسلم بمكة قديماً وهاجر المهجرتين، وشهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وهو صاحب نعل رسول الله ﷺ، لم يسبها إياه إذا قام، فإذا جلس أدخلها في ذراعه وكان كثير الولوج على رسول الله ﷺ". تحذيب الكمال 122/16 - 123. وقد روى البخاري ومسلم في فضائل ابن مسعود قول أبي موسى (ت) أنا وأخي من اليمن فكنا حيناً وما نرى ابن مسعود وأمّه إلا من أهل بيت رسول الله ﷺ من كثرة دخولهم ولزومهم له). وروى مسلم عن أبي الأحوص قال: (شهدت أبا موسى وأبا مسعود حين مات ابن مسعود. فقال أحدهما لصاحبه: أتراه ترك بعده مثله؟ فقال: إن قلت كذلك ليؤدّن له إذا حج بنا ويشهد إذا غي بنا). وأخرج البخاري ثناء أبي الدرداء على ابن مسعود لما لقي تلميذه علقمة فسأله (من أنت؟ قلت: من أهل الكوفة. قال: أو ليبيكم ابن أمّ عبد صاحب الذّلين والوساد والمظهرة؟) وروى البخاري عن عبد الرحمن بن يزيد قال: (سألنا حذيفة عن رجل قريب السّمّت والمهدي من النبي ﷺ حتى يأخذ عنه. فقال: ما أعرف أحداً أقرب سمناً وهدياً ودلاً من ابن أمّ عبد). وروى الذهبي في التذكرة كتاب عمر لأهل الكوفة (ل) قد بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب محمد ﷺ من أهل بدر فاقتدوا بهما واسمعوا. وقد آتاكم بعدد الله بن مسعود على نفسه". تذكرة الحافظ 41/1. توفي بالمدينة سنة الثنتين وثلاثين تحذيب الكمال (126/16).

يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضعةً مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتيبيّته وأجله وعمله وشقيّ أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها). رواه البخاري ومسلم.

الحديث التاسع عشر: عن أبي العباس عبد الله بن عباس رضي الله عنهما¹ قال: كنت خلف النبي p يوماً فقال: يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليكم، فمعت الأقاليم وجفت الصحف). رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وفي غير الترمذي (احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً).

¹ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: هو ابن عم رسول الله p . لد قبل الهجرة بثلاث سنين. وتوفي رسول الله p وهو ابن ثلاث عشرة سنة أو خمس عشرة سنة. قال المزي: كان يفتي ليو: والد حذر لكثرة علمه؛ دعا له النبي p بالحكمة مرتين، وقال عبد الله بن مسعود: نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس". (تخذيب الكمال 155/16). وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: إن النبي p الخلاء فوضعت له وضوءاً. (قلبن وضع هذا؟ فأخبر. فقال: اللهم فقهه في الدين). وقد كان t من أعلم الصحابة بتفسير القرآن؛ ببركة دعاء النبي p له (اللهم علمه الكتاب) كما في البخاري. قال ابن حجر: "قد كان عمر يقدره مع الأشياخ وهو شاب" فتح الباري 7/717 لأنه يشير إلى قصة المشهورة في شأن سورة النصر رضي الله عنهم جميعاً من رواة الحديث المكثرين. مات سنة ثمان وستين رحمه الله تعالى وصلى عليه محمد بن الحنفية وقال يوم مات راني هذه الأمة". تخذيب الكمال 15/162 وتذكرة الحفاظ 41/1.

وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدِئِذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَمِعْمَلِهِ عَمَلًا شَيْئًا { (الحج:5) فقد ضمّت الحيا والممات. وكذلك جاء ختام آيات سورة المؤمنون بتعمّله إتغاكُم { بعد ذلك لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّا كُنْمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبَعُ شُونَ { (المؤمنون:15،16)؛ وكل ذلك تأكيداً لمبدأ التكليف وخلافة الأرض وإعمارها بالعبودية والطاعة.

وهذا تراه كذلك في سورة (الت) دعنا حَقِيلَةً تَعَالَىٰ إِلَيْنَا نَسْأَلُكَ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ لِنَهْهُ أَقْرَبُ حَبِيلِ الْوَرِيدِ { (ق:16) ثم {كُرَّةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَدُوكُنْفَخِمْ فِيهِ الْمَصُورُ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ { (ق:19،20) وفي آخر إِنْ لَخُورِقُنْ رِيحُ يَوْمِي وَلِيَدُنَا الْمَصِيرُ { (ق:43) نُوهِى سَلْوَةٌ طَلَقَ {كُمُ} وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى { (طه:55) وفي سورة النجم عند ذكر سعي الإنسان وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلَّهُ هَتُّهُ { (الشمس:42) أَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ مِنَ الطُّطْهِ إِذَا الْفُلُ نَشَىٰ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى { (النجم:43-47) كذلك ما جاء في سورة الروم في القَوْلُ تَعَالَىٰ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ { (الروم:11) الْقَوْلُ الْقَدِيمُ وَالْقَوْلُ الْجَدِيدُ {كُمُ} ثُمَّ رَزَقَكُمْ مِنْهُ ثُمَّ كُمْ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ { (الروم:40) سُوْرَةُ الْعَنْكَبُوْتِ رَضٍ فَاَنْظُرْ وَاكْفَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ لِئَلَّا يَكُنَّ لِلَّهِ عَادٌ قَدِيرٌ { (العنكبوت:20).

المطلب الثاني: أركان الإيمان بالقدر:

القلم: وكتابة ومشينة وخلق. فهو أول تقدير الله الأشياء في القدم علمه سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة وعلى صفات مخصوصة، كما جاء في قوله تعالى: {نَّ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} { (العنكبوت:62) لَوْ قَوْلَهُ سَبِحَانَكَ {كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةٌ وَعِلْمًا { (غافر:7) وَقَوْلُهُ لَلَّحْمِزِ {كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدَّاطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} { (الطلاق:12)، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ لَمْ مَقْنٌ وَخَدَلُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ { (الملك:14).

والقدر . ثانيًا كتابةُ الله جميع الأشياء في اللوح المحفوظ، كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ {البص: 12} {مُصْرِيَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرُدَ لَهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُسِيرٌ} {الحديد: 22}، يرحمهُ مَا يَلْبِغُكَ وَيَعْنِدُهُ أُمُّ الْكِتَابِ} {الرعد: 39}. وقد جاء في البخاري حديث عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: (كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء) وفي رواية أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي). وعند أحمد والترمذي من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال: (أول ما خلق الله القلم ثم قال: اكتب. فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة).

والقدر . ثالثًا . مشيئة الله النافذة التي لا يردُّها شيء، والقدرة الغالبة التي لا يعجزها شيء، كما قال سبحانه: ﴿ذَا أَرَأَىٰ أَن يَسْقُطَ إِلَيْهِ كُنُوزٌ فَكَوْنُ {يس: 82}، وَوَقَلَىٰ لَعَلَّتْهُ بُؤُورٌ وَإِلَاءَ اللَّهِ يَشْرَبُ الْعَالَمِينَ} {التكوير: 29}، وكما قال الله عز وجل: ﴿لِيُؤْذَنُوا بِشَاءِ اللَّهِ} {الأنعام: 111}، وقال تعالى: ﴿لِيُؤْذَنُوا بِشَاءِ رَبِّكَ مَا فَعَلُوهُ} {الأنعام: 112} وما أجل قول نوح عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿لَا يَنْفَعُكُمْ نَصْرِي إِن أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ} {هود: 34}.
والقدر - رابعًا - خلق الله كل شيء، كما قال الله عز وجل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هُوَ وَعَلَىٰ عِلْمِي كُلِّ شَيْءٍ وَكَذِيلٌ} {الزمر: 62} وقال تعالى ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ اللَّهُ} {فاطر: 3} وقال عز وجل: ﴿لَا تَعْلَمُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ حَيْثُ تَعْلَمُونَ} {الصافات: 96} وقال سبحانه ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ فَيَقْدِرُ لَهُ تَقْدِيرًا} {الفرقان: 2}.

المطلب الثالث: معنى حديث النبي ﷺ (مُوسَى) وهل فيه دُجَلَجِبَ رية؟

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: التحقيق أن هذا الحديث رُوي بالفاظ كثيرة، بعضها مروى بالمعنى، وفيه نظر، ومدار معظمها في الصحيحين وغيرهما على أنه لأمه على إخراج نفسه وذريته من الجنة. فقال له آدم: أنا لم أخرجكم، وإنما أخرجكم الذي رتب الإخراج على أكلي من الشجرة. والذي رتب ذلك وقدره وكتبه قبل أن أُخلق هو الله عز وجل فأنت تلومني على أمرٍ ليس له نسبة إليَّ أكثر من أني نُهييت عن الأكل من الشجرة

فأكلت منها، وكون الإخراج مترتباً على ذلك ليس من فعلي؛ فأنا لم أُخرجكم ونفسي من الجنة، وإنما كان هذا من قدر الله وصنع موله الحكمة في هذا؛ فلهذا حج آدم موسى".¹

ثم فهدى رحمه الله تعالى شبهات الجبرية من وجوه: "أحدها: أن موسى عليه السلام لا يلوم على أمر قد تاب منه فاعله. الثاني: أنه قد قتل نفساً لم يؤمر بقتلها وقد سأل الله في قهالك بقوله {إِنِّي سَظْلِمٌ فَلَا تُعَذِّبْهُ لِي فَغَفَرَ لَهُ} (القصص: 16) الآية. الثالث: أنه لو كان الجواب عن اللوم على الذنب بالقدر تلقدم كتابته على العبد، لانفتح هذا لكل من ليم على أمر قد فعله؛ فيحتج بالقدر السابق فينسد باب القصاص والحدود. ولو كان القدر حجة لاحتج به كل أحد على الأمر الذي ارتكبه. في الأمور الكبار والصغار. وهذا يفضي إلى لوازم فظيعة. فلهذا قال من قال من العلماء أن جواب آدم إنما كان احتجاجاً بالقدر على المصيبة لا المعصية".²

المطلب الرابع: ثمرات الإيمان بالقدر:

[1] الاعتصام بحبل الله والإنابة إليه والتوكل عليه الأذرى {كُلُّهُ لِي لَمْ يَلْ} (آل عمران: 154) {مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَمِنْ مَخْرَجَتِهِ يَجْعَلْ لَهُ رِزْقاً وَسِعاً} (النحل: 53) {الباقي غير ربه الله يرزقكم من السمماء والأرض لا اله الا هو إني توو فكون} (فاطر: 3) {الحج الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ولا ولد ولا يممسسكل فله من بعد ه} (فاطر: 2) وفي البخاري من حديث المغيرة بن شعبة (سمعت النبي ﷺ يقول خلف الصلاة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعتينفع ذا الجد منك الجد) وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال تعوذوا بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء) وقد قال إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام {وَدُّوا لِي إِلاَّ الَّذِي خَلَقَنِي رَفِهُوا الْعِيَالَهُ لِي يَنْ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي وَأَنْ يَبْدُلْ لِي رِزْقِي فَهَوَ يَشْفِينِي وَالَّذِي يُلْقِي فِي بَطْنِي وَهُوَ غَيْرُ مُبِينٍ} (الشعراء: 77-)

1 البداية والنهاية لابن كثير 84/1 - 85.

2 المرجع السابق 85/1.

82) ولذلك كان شعار كل وعبدًا فهِبْ { أمْ رِي إِلَى اللَّهِ اللَّيْنُ بِصِيرٍ بِأَلْوَعِ بِمَلَدٍ } (تأليف: 44) { لَمْ أَعْلَمْ لِي اللَّهُ وَ قَدْ هَذَا سُبُلًا } (إبراهيم: 12).

[2] الصبر والاحتساب عند المصيبة والشكر عند النعمة؛ لما تغرسه الآيات في قلب المؤمن من أن القدر مكتوب "على المرء في بطن أمه كما قالوا لعلنا نبي" من مُصْبِيَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ لَّيْلًا إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَلْمَى اللَّهُ يَسِيرٌ" { (الحديد: 22)؛ ومن هنا قال سلفنا فرعوناً أنت قاضٍ إنَّمَا تَقْضِيهِ ذِه الحَيَاةَ الدُّنْيَا { (طه: 72).

[3] حسن اليقين بالأجل والرزق لأن ذلك مُسَجَّلٌ فِي الْأَكْتَابِ { تَأْخِرُ رُونَ سَاعِيَةً سَوًّا تَلَقَّدِ مُونَ } (يونس: 49) حيث يؤمر الملك بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد. وكما قال النبي ﷺ إنَّ رُوحَ الْقُدْسِ نَفْثٌ فِي رُوعِي أَنْ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا) وقال لخير الأمة عبد الله بن عباس (يا غلام إني أعلمك كلمات...).

[4] ملازمة التقوى والاحتياط من المعاصي والحذر من أن يُخْتَمَ سَجَلُ الْعَمْرِ بِمَا يَسْخَطُ اللَّهُ؛ لأنَّ (العمل بالخواتيم) كما قال النبي ﷺ؛ ومن هنا قال العلامة ابن أبي جمرة: "هذه هي التي قطعت أعناق الرجال مع ما هم فيه من حسن الحال؛ لأنهم لا يدرون بماذا يختم لهم؟" ¹ وقد قال عبد الحق في كتاب العاقبة: "إنَّ سَوْءَ الْخَاتِمَةِ لَا يَقَعُ لِمَنْ اسْتَقَامَ بَاطِنُهُ وَصَلَحَ ظَاهِرُهُ؛ إِنَّمَا يَقَعُ لِمَنْ فِي طَوْبِهِ فَسَادٌ وَارْتِيَابٌ وَيَكْثُرُ وَقُوعُهُ لِمَنْ صَبَرَ عَلَى الْكِبَائِرِ وَالْجَثْرِيِّ عَلَى الْعِظَائِمِ؛ فِيهِجَمُ عَلَيْهِ الْمَوْتُ بَغْتَةً، فَيَصْطَلِمُهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ تِلْكَ الصَّدْمَةِ". ² وقال ابن رجب: "إنَّ خَاتِمَةَ السُّوْجُونِ بِسَبَبِ دَسِيسَةِ بَاطِنَةٍ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا النَّاسُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ عَمَلٍ سَيِّئٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ فَتَلِكُ الْخِصْلَةُ الْخَفِيَّةُ تَوْجِبُ سَوْءَ الْخَاتِمَةِ عِنْدَ الْمَوْتِ... وَبِالْجَمَلَةِ فَالْخَوَاتِيمُ مِيرَاثُ السُّوَابِقِ، فَكُلُّ ذَلِكَ سَبَقٌ فِي الْكِتَابِ السَّابِقِ". ³

¹ نقله الحافظ ابن حجر في فتح الباري 13 / 325.

² المرجع السابق 13 / 326.

³ جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص 78 - 79.

ولله درّ ابن القيم ما أحسنَ قولَه (طوبى لمن أنصف ربّه فأقرّ له بالجهل في علمه، والآفات في عمله، والتفريط في حقه، والظلم في معاملته، فإن أخذَه بذنوبه رأى عدله، وإن لم يؤاخذَه بما رأى فضله، وإن عمل حسنة رآها من منته وصدقته عليه، فإن قبلها فمنةٌ وصدقةٌ ثانية وإن ردّها فلكون مثلها لا يصلح أن يواجه به، وإن عمل سيئة رآها من تخلّيه عنه وخذلانه له وإمساك عصمته عنه؛ وذلك من عدله فيه. فيرى في ذلك فقره إلى ربه وظلمه لنفسه، فإن غفرها فبمحض إحسانه و جوده وكرمه ونكتة المسألة وسرّها أنه لا يرى به إلا محسناً، ولا يرى نفسه إلا سيئاً أو مفضلاً أو مقصراً فيرى كل ما يسرُّه من فضل ربه عليه وإحسانه إليه، وكل ما يسوءه من ذنوبه وعدل الله فيه).¹

المبحث الرابع: درس (التحذير من الابتداع في الدين):

ويضم الحديث الخامس، والحديث الثامن والعشرين، والحديث الحادي والأربعين.

الحديث الخامس: عن أم المؤمنين أم عبد الله عائشة رضي الله عنها² قالت: قال رسول الله ﷺ: **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ** (رواه البخاري ومسلم. وفي رواية لمسلم: **عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ**).

1 الفوائد لابن القيم ص 33.

2 أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها صدّيقة بنت الصدّيق، زوج النبي ﷺ، زوجها بمكة قبل الهجرة بستين أو ثلاثة، "وبنى بها بالمدينة بعد من نصّ ربه من وقعة بدر في شوّال سنة اثنتين من الهجرة وهي بنت تسع سنين" تحذيب الكمال 227/35. وقد روى البخاري في فضله رضي الله عنها قول النبي ﷺ: **يا عائش هذا جبريل يقرئك السلام** وقوله ﷺ: **فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**، وقوله ﷺ: **أم سلمة يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة فإنه والله ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن سواها**، وقال عمار: **إني لأعلم أنّها زوجته في الدنيا والآخرة** ويشهرها ابن عباس رضي الله عنهما لما اشتمكت فقال: **يا أم المؤمنين تقدمين على فرط صدق: على رسول الله ﷺ وعلى أبي بكر**. فتح الباري 478/7 - 479. ويكفيها فضلاً رضي الله عنها ما أحاب به النبي ﷺ عمرو بن العاص لما سأله: **أبليس أحب إليك؟ قال: عائشة. قلت: من الرجال؟ قال: أبوها** رواه الشيخان. وما أحاب به فاطمة رضي الله عنها لما أرسلها أزواج النبي ﷺ يسأئنه العدل في عائشة فقال لها رسول الله ﷺ: **نبيلة أأنت؟ تجيبين ما أحب؟ فقالت: بلى. قال فأحبي هذه** رواه مسلم. وقد روى المزني قول الشعبي: **كان مسروق إذا حدث عن عائشة قال: حدثتني الصادقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله المرآة من فوق سبع سماوات**، وقول عروة بن الزبير: **ما رأيت أحداً أعلم بفقّه وبطبّ ولا شعر من عائشة، أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأياً في العامة** تحذيب الكمال 234/35. ومن هنا وصفها الذهبي بأنها: **"من أكبر فقهاء الصحابة، كان فقهاء أصحاب رسول الله ﷺ يرجعون إليها. تفقه بها جماعة" تذكرة الحفاظ 27/1**. توفيت رضي الله عنها في سنة سبع وخمسين رحمها الله تعالى.

الحديث الثامن والعشرون: عن أبي نجيح العرياض بن سارية¹ قال: وعظنا رسول الله ﷺ وعظوا جحيتاً منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودعاً ووصنا. قال: وأوصيكم بتقوى الله عز وجل والسمع والطاعة وإن تأمليكم عبد، فإنه من يعش منكم بعدني؛ فسيروا اختلافاً كثيراً فإعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عطف عليها بالتواجيز، وإيلكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

الحديث الحادي والأربعون: عن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص² قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) حديث حسن صحيح، رواه في كتاب الحججة بإسناد صحيح.³

¹ العرياض بن سارية أبو نجيح السلمى من أهل الصفة، وهو أحد البكائين الذين نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿لِي آتَىٰ إِيَّاهُ الْوَيْلُ﴾. قال أبو داود: "أحد من عمرو بن عبد بنسبة والعرياض بن سارية يقول: أنا ربع الإسلام لا يدري أيهما أسلم قبل صاحبه". وقال شريح بن عبيد: "كان عتبة بن عبيد يقول العرياض خير مني، وعرياض يقول عتبة خير مني". سبقني إلى النبي ﷺ وذكر خليفة بن خياط في طبقاته أن العرياض توفي في فتنة ابن الزبير وذلك سنة خمس وسبعين (تخذيب الكمال 550/19 - 551).
² عبد الله بن عمرو بن العاص: ترجم له الذهبي رحمه الله بقوله: "العلم الزباني أبو محمد وأبو عبد الرحمن القرشي السهمي، أحد من هاجر هو وأبوه قبل الفتح وأبوه أسن منه بأحد عشر عاماً فقط. وكان النبي ﷺ يفضله على والده. وقد كان من أيام النبي ﷺ أما تالياً لكتاب الله طلبة للعلم، كتب عن النبي ﷺ علماً كثيراً، وكان يعترف له أبو هريرة بالإكثار من العلم، وقال: فإنه كان يكتب عن النبي ﷺ، وكتب لا أكتب وكان خيراً مقبلاً على شأنه، ويوم أباه على القيام نوبة الفتنة. ويتأثم من القعود عنه خوف العقوق؛ فحضر صفين ولم يسلم شيئاً تذكره الحفاظ 42/1. توفي سنة خمس وستين في أكثر الأقوال. راجع (تخذيب الكمال 362/15 وتذكره الحفاظ 42/1).

³ ملاحظة: في ذكر الحافظ النووي رحمه الله حديث (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)، ويقول الحافظ ابن رجب لمعناه مثال من طريقة المحدثين في أنهم ربما ذكروا الحديث الذي فيه ضعف من جهة إسناده من باب جبره بالشواهد على معناه من القرآن أو السنن المجتهدية بما هذا مداره على نعيم بن حماد وهو ضعيف عند كثير من نقاد الحديث. كما أن فيه شيخ عبد الوهاب الثقفي، وهو مجهول ولكن انصب نظر النووي وابن رجب على صحة المعنى، قال ابن رجب بعد أن ذكر ضعف الإسناد: "أما معنى الحديث فهو أن الإنسان لا يكون مؤمناً كامل الإيمان الواجب، حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الإلهي وغيرها؛ فيجب ما أمر به ويكره ما نهي عنه وقد ورد في القرآن ريثماً لهذا في غير موضعين قلنا تعالى: ﴿لَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَكْرَهُنَّ﴾ (الأحزاب: 36) سبحانه من كره ما أحب الله وأحب ما كرهه الله قال تعالى: ﴿مَنْ أَتَاهُ مِنْهُنَّ أَمْرٌ أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَبَ إِلَيْهِ فَظَلِمَ لَكُمْ بِاللَّهِمْ﴾ (محمد: 9) وقال تعالى: ﴿ظَلِمَ اللَّهُ وَأَكْرَهُهُ وَارْضَوْا بِهِ إِنَّهُ كَانَ بَطُولاً عَلَيْهِمْ﴾ (محمد: 28). فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحب الله محبة توجب له الإتيان بما وجب عليه منه، فإذا زادت المحبة حتى لقي بما ندى إليه منه كان ذلك فضلاً يكره ما كرهه الله تعالى كراهة توجب الكف عما حرم عليه فإذا زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهاً كان ذلك فضلاً".

مع التنبيه هاهنا إلى أن ابن رجب لم يوافق النووي على تصحيح الحديث، بل قال: "تصحیح هذا الحديث بعيد جداً من وجوه... ومع ذلك أثبت صحة معناه ولولا قول النووي: (رواه في كتاب الحججة بإسناد صحيح)؛ لملنا ذلك على إرادة صحة المعنى. وما زال العلماء

المطلب الأول: فقه الأحاديث الثلاثة:

[1] لا تخفى العلاقة الوثيقة بين قوله ρ في الحديث الأول: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه)، وقوله في الحديث الثاني: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ؛ وإياكم ومحدثات الأمور فإنّ كل بدعة ضلالة)، وقوله ρ في الحديث الثالث: (حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به). وهي علاقة (الأمر بالمحافظة على السنة) و(النهي عن البدع ومحدثات الأمور)؛ ولهذا أخرج النووي رحمه الله حديث العرياض τ في هذين البابين من رياض الصالحين.¹

[2] لا بلّغن ربط النصوص بعضها ببعض جمعاً وتوفيقاً فقد علم أنّ الولاية الكبرى للمسلمين يشرط فيها الحرية والقرشية... الخ ومن هنا قال أبو سليمان الخطابي في شرح سنن أبي داود: "قوله: (إنّ عبداً حبشياً) يريد طاعة من ولاة الإمام عليكم بسنتي وإن كان عبداً حبشياً. وقد ثبت عنه ρ أنه قال: (الأئمة من قريش). يضرّبُ المثل في الشيء بما لا يكاد يصح منه الوجود كقوله ρ (إنّ بنى الله مسجداً ولو مثل مَنَحَصِ قَطَاةٍ؛ بنى الله له بيتاً في الجنة) وقدر مَنَحَصِ قَطَاةٍ لا يكون مسجداً لشخص آدمي، وكقوله: (لو سرق فاطمة لقطع يدها). وهي رضي الله عنها لا يؤهّم عليها السرقة. وقال: (لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده) ونظائر هذا في الكلام كثير".²

[3] في قول النبي ρ : (هلّ عليها بالنواجذ) أبلغ الأمثالاً؛ لأنها تتناول أكثر من معنى، وهذه خصيصة من أوتي جوامع الكلم ρ قال الخطابي: أراد بذلك الجدّ في لزوم السنة فعلم من أمسك الشيء بين أضراسه وعضّ عليه منعاً له أن يئنّزع؛ وذلك أشدّ ما يكون من التمسك بالشيء إذ كان ما يمسكه بمقادير فمه أقرب تناولاً وأسهل انتزاعاً. وقد

يختلفون في الحكم على معنى الأحاديث والرجال؛ ولعلّ تصحيح النووي كان اعتماداً على توثيق بعض الأئمة لتعظيم وإخراج البخاري له. والله أعلم.

1 رياض الصالحين ض 111 - 118.

2 معالم السنن 300/4 - 301.

يكون معناه أيضاً الأمر بالصبر على ما يصيبه من المضض في ذات الله كما يفعله المتألم بالوجع يصيبه".¹

[4] وقأهل العلم بين ما جاء في صحيح مسلم من حديث جريو: (من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء) بين هذه الأحاديث الواردة في ذمّ البدع، مع قول عمر ؓ في التراويح: (نعمت البدعة هذه) بأن ما كان مندرجاً تحت أصل من أصول الإسلام، لا يُعتبر بدعة، بل هو سنة، وأما ما كان في معنى المخالفة للسنة وإحداث تشريع ما أنزل الله به من سلطان فتلك هي البدعة، وهذا كالمتمفق عليه بين أهل العلم. قال الخطابي: "قوله (كل محدثة بدعة) فإنّ هذا خاص في بعض الأمور دون بعض، وكل شيء أحدث على غير أصل من طُوبى الدين وعلى غير عياره وقياسه، وأما ما كان منها مبنياً على قواعد الأصول ومردوداً إليها؛ فليس ببدعة ولا ضلالة".² وقال ابن رجب: "المراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدلّ عليه وأما ما كان له أصل من الشرع يدلّ عليه فليس ببدعة شرعاً"،³ وقال ابن حجر: "المحدثات . بفتح الدال . جمع محدّثة . والمراد بها ما أحدث وليس له أصل في الشرع، يُسمّى في عرف الشرع بدعوماً كان له أصل يدلّ عليه فليس ببدعة".⁴

المطلب الثاني: خلاف العلماء في تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة:

منع بعض العلماء تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة؛ لثلاث توصف البدعة . وهي مذمومة وشما . بالحُسن فيكون في ذلك مضادّة لقول النبي ﷺ (كل بدعة ضلالة).⁵ ولم يـ

1 المرجع السابق 301/4.

2 معالم السنن 301/1.

3 جامع العلوم والحكم ص 357.

4 فتح الباري 178/15 - 179.

5 راجع كلام ابن تيمية رحمه الله في [أقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم 90/2 وما بعدها]

بعض العلماء بأساً في إطلاق وصف الحسن على البدعة إذا كانت في حقيقة الأمر سنة كما قال الشافعي فيما أخرجه أبو نعيم: "البدعة بدعتان: محمودة ومذمومة، فما وافق السنة فهو محمود، وما خالفها فهو مذموم"، وأخرج البيهقي في مناقب الشافعي قوله: "المحدثات ضربان: ما أحدث يخالف كتاباً أو سنة أو أثراً أو إجماعاً فهذه بدعة الضلال، وما أحدث من الخير لا يخالف شيئاً من ذلك فهذه محدثة غير مذمومة".¹ وقال ابن الأثير: "البدعة بدعتان: بدعة هدى وبدعة ضلال، فما كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله فهو في حيز الذمّ والإنكار. وما آك واقعاً تحت عموم ما ندب الله إليه وحضّ عليه. أو رسوله فهو في حيز المدح. وما لم يكن له مثال موجود كنوع من السخاء والجدود وفعل المعروف فهو من الأفعال المحمودة. ولا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما ورد الشرع به؛ لأنّ النبي ﷺ قد جعل له في ذلك ثواباً فقال (سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها) وقال في ضدّه (من سنّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها)؛ وذلك إذا كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله ﷺ. ومثّل للبدعة الحسنة بقول عمر في صلاة التراويح (نعمت البدعة)، ثم قال: وهي على الحقيقة سنة لقوله ﷺ (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين)، وقوله: (اتخذوا باللذنين من بعدي أبي بكر وعموكم) هذا التأويل يحوّل الحديث الآخر (كل محدثة بدعة) على ما يخالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة".²

هذا، وقد ثبت من لفظ النبي ﷺ تقسيم السنة إلى حسنة وسيئة، وثبت في لفظ عمر (نعمت البدعة هذه)، مع ملاحظة أنّ هذا التقسيم إنما يكون عند التقييد بأحد الوصفين مثل (بدعة حسنة) أو (سنة سيئة)، وأما عند الإطلاق فتتصرف السنة إلى المعنى المحمود، كما قال النبي ﷺ: (عليكم بسنتي)، وتنصرف البدعة إلى المعنى المذموم كما في قول النبي ﷺ: (إياكم ومحدثات الأور فإنّ كل محدثة بدعة) فبينهما عموم وخصوص وجهي؛ إذ يشتركان في عموم الإحداث، وتختصّ السنة بإحداث المحمود، وتختصّ البدعة بإحداث المذموم.

1 فتح الباري 175/15.

2 النهاية في غريب الحديث 79/1 استفدته من [البدعة تحديدها وموقف الإسلام منها]. د. عزت علي عطية ص 161 - 162

وقد وجد بعض العلماء ما ثبت من إطلاق الحسن على البدعة على المعنى اللّغوي في ذلك وهو معنى الإحداث. قال ابن تيمية: "أكثر ما في هذا تسمية عمر تلك (بدعة) مع حسنّها، وهذه تسمية لغوية لا تسمية شرعية؛ وذلك أنّ البدعة في اللغة تعم كل ما فُعل ابتداءً من غير سالف. وأما البدعة الشرعية فما لم يدلّ عليه دليل شرعي... فلفظ البدعة في اللغة أعمّ من لفظ البدعة في الشريعة".¹ قال ابن رجب: "وأما ما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع فإنما ذلك في البدع اللغوية لا الشرعية. فمن ذلك قول عمر رضي الله عنه جمع الناس لقيام رمضان على إمام واحد في المسجد يخرج وآهم يَصُلُّون كذلك فقال: نعمت البدعة هذه".²

وقال ابن حجر: فالبدعة في عرف الشرع مذمومة بخلاف اللغة؛ فإن كل شيء أحد ثلوع غير مثال سابق يسمى بدعة سواء كان محموداً أو مذموماً.³ وكلام الشاطبي في تقرير ذلك في كتاب (الاعتصام) مشهور.⁴

ولعل الأقرب إلى البلاغة النبوية والأسلم من الاعتراض أن يُقال: خرج هذان اللفظان مخرج المشاكلة، وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته؛ فالمشاكلة المحققة ظاهرة في تعبير النبي صلى الله عليه وآله عن البدعة بـ (السنة السيئة) لوقوعها في صحبة (السنة الحسنة). وذلك مثل تعبيره صلى الله عليه وآله عن الغبطة بالحسد في حديث (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على ما لم يكن له في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بما ويعلمها)، قال النووي: "معينبغي ألا يُعْبَطَ أحدٌ إلا على إحدى هاتين الخصلتين"،⁵ وقال ابن رجب: "هذا هو الغبطة؛ والله سداً من باب الاستعارة".⁶

1 اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم 95/2 - 96.

2 جامع العلوم والحكم ص 358.

3 فتح الباري 179/15.

4 قد كنت متودداً في هذا الأمر حتى وافقني على ذلك العلامة اللّغوي الشيخ محمد علي الطريفي رئيس هيئة الفتوى بجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية والشيخ الحدّث مساعد بشير علي والشيخ الدكتور عبد الحي يوسف نفع المسلمين بعلمهم.

5 رياض الصالحين ص 252.

6 جامع العلوم والحكم ص 434.

وهذا الأسلوب قد عرفه العرب في لسانهم ولم يفوه في بلاغتهم؛ حيث إنهم يذكرون الشيء باللفظ المصاحب له من غير أن يتوهّم السامع تغييراً في معنى اللفظ الأول أو إشراباً لمعنى اللفظ المصاحب بالمشاكلة صورة اللفظ المصاحب مع بقاء معنى الأصل، ومثل ذلك في كتاب الله كثير¹.

لَعِبُوا قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَلَّ ذَمًّا سَيِّئَةً مُمْلُهُ لَ {الشورى: 40} والله لا يأمر بالسيئة بل المراد معنى المجازة والعقوبة وإن خرج بلفظ السيئة لوقوعه في صحبته. وقد ذكر الإمام ابن جرير والحافظ ابن كثير وجهاً من وجوه التفسير في قوله تعالى: لَعِبُوا قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَلَّ ذَمًّا سَيِّئَةً مُمْلُهُ لَ {البقرة: 15}: "هذا وأمثاله على سبيل الجواب كقول الرجل لمن يجده إذا ظفر به: أنا الذي خدعتك، ولم يكن منه خديعة؛ ولكن قال ذلك إذ صار الأمر إليه. قالوا: وكذلك قوله تعالى: وَوَكَلَّكَرُ خَدَّالَهُ رُ الْمَ كَارِينِ {ال عمران: 54} ومثل تَهْ زَيْ {م} على الجواب، والله لا يكون منه المكر ولا الهزء. والمعنى أن المكر والهزء حاق بهم. وقال آخرون: قوله تعالى: (إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بغيره) لِلْقَوْلِ: وَإِذْ هَعُو خَادِعَهُمْ {النساء: 142} فَيَقُولُ لِمَنْ إِسْرَ حِينَ رَ اللّهُ مَسْتَهْمْ {التوبة: 79} فَوَلَّى وَأَلَّهَ فَدَسَّ يَهُمْ {التوبة: 67} ما أشبه ذلك إخبار من الله تعالى أنه مجازتهم جزاء الاستهزاء ومعاقبهم عقوبة الخداع؛ فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ وإن اختلف المعنيان، كما قال تعالى: الرِّسِيَّةُ سَيِّئَةً مُمْلُهُ لَ فَمَنْ عَدَا وَأَوْصَلَ فَجَادَ رَهْ عَمَى اللّهُ {الشورى: 40} وقوله اعْتَلَى عَلَى عَمَلِكُمْ فَأَعَدُّهُ لِيَوْمِ {البقرة: 194}، فالأول ظلم والثاني عدل؛ فهما وإن اتفقا لفظهما فقد اختلف معناهما. قال وإلى هنا المعنى وجد هياكل ما في القرآن... تفسير القرآن العظيم 73/1".

وهذا أشبه ما يكون بـ (السنن الحسنة والسيئة). وقال مَقْرَبُ ذَلِّهِ بِنِي قَوْلِهِ بَقَالِي: (أَهْمُ وَجَدَ اتَى أَكَلِ مَحَطِّ وَ أَثَلِ وَ شَيْءٌ مِّنْ سِدْرٍ قَدِيلِ) (سبأ: 16). ومنه في كلام العرب قول أحمد بن محمد الأنطاكي:

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبعه قلت اطبخوا لي جبة وقميصا!

وقول أبي تمام:

مَنْ مَبْلَغُ أَفْئَاءِ يَعْربُ كُلِّهَا أَهْنَيْتُ الْجَارِ قَبْلَ الْمَنْزِلِ!

قال الخطيب القزويني: "كأنه قال: لولا بناء الدار لم يصح بناء الجار" الإيضاح في علوم البلاغة ص 199، يريد أنه أقام (طبخ الجبة والقميص) مقام (الخيطة)؛ لوقوعها في صحبة الطعام، وكذلك أقام (بناء الجار) مقام (بناء الدار). مَثَلَةُ الْجَارِ بِالْدارِ. وأما قول عمر بن الخطاب فيلشكلة التقديرية، وهي عبارة عن الإشارة إلى صورة حاضرة في الذهن وإخراج اللفظ مستصحباً لذلك الاعتبار وإن خلا المعنى هنا من ذكره تحقيقاً، لكنه مَبْدَرٌ معلوم من السياق والقارئ. وقد مثلوا لذلك في كتاب الله بقوله عز وجل: (صبغة الله)، قال الخطيب القزويني: "والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه (المعمودية)، ويقولون هو تطهير لهم؛ فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم (قولوا آمنا بالله)، وصبغنا الله صبغة لا مثل صبغكم وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيركم... وحيء بلفظ الصبغة للمشاكلة، وإن لم يكن قد تقدّم لفظ الصبغ؛ لأن قرينة الحال... دلت على ذلك" (المرجع السابق)، فكذاك ههنا ينزل قول عمر بن الخطاب المنزلة، فيقال: قد أشار بقوله: (نعمت البدعة هذه) إلى أن هذه السنة ليست من البدع المذمومة في شيء بل هي سنة دهيئة. بما. وأخرج السنة بلفظ البدعة الحسنة من باب المشاكلة التقديرية؛ استصحاباً لذلك المعنى المتبادر للذهن، مع دلالة القرائن على ذلك من نحو الإشارة إلى مفهوم المخالفة من قوله: (نعمت) وهو تحريم لها من البدعة المذمومة شرعياً كذلك ما عهد عند اللغويين والنحويين من اقتراح لفظي (نعم) و(يُنْجِيك) إذا طرقت السمع أحد هما تمثل في الذهن قرينة كما قيل: (وبضدها تميز الأشياء). ومن هذا الباب ما ذكره علماء الجرح والتعديل من قول شعبة لبعض أهل الحديث: ثعلب حتى نغتاب ساعة في سبيل الله؛ يريد بالغبية الكلام في الرواة جرحاً وتعديلاً.

وقد يجمل كذلك حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الطباقي الظاهر، ويحمل قول عمر بن الخطاب على الطباقي المعنوي، وهو الجمع بين أمر وما يتعلق بمقابلته، فمثال الأول (لما ما كسبت وعليها ما اكتسبت)، ومثال الآخر الطباقي الخفي بين قول الكفار: (إن أنتم إلا تكذّبون)، وقول الرسل الكرام عليهم السلام: (إنا إليكم مرسلون). راجع (علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع 12/2-14) د. بسويبي عبد الفتاح بسويبي ففعل الحمل على بعض المعاني البلاغية أولى من مجرد الحمل على المعنى اللغوي. والله أعلم بالصواب.

تنبيه: لا ريب أنّ الأصلح في زماننا والأقرب إلى الاحتياط والأسلم في الاعتقاد والعمل أن يُغلق باب الفساد الناجم عن التساهل في الاصطلاح وتُسدّ ذريعة الفتنة؛ فليس زماننا كزمان الشافعي وابن الأثير وابن عبد السلام بل نحن في زمانٍ تمكّنت فيه البدعُ وعوّتٌ فيه السننُ وقلّ فيه العلماء وكثر الخطباء، وانتشرت فيه المصطلحات غير الشرعية؛ بحيث لا يُؤمن على بعض الناس أن تشبّه عليهم السنة بالبدعة إذا اعتادوا على سماع لفظ (بدعة حسنة)، فضلاً عن أن يكون ذلك مدعاةً إلى التساهل في المبتدعات. ولا شك أنّ الاقتصار على إطلاق البدعة والسنة على معنييهما المرادين منهما عند الإطلاق أقرب إلى مقصد الشرع في التنفير من البدعة والحثّ على السنة. ورحم الله ابن مسعود فقد ذكر الذهبي في (تذكرة الحفاظ) قوله: "الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة".

المطلب الثالث: هذه الأحاديث أصل في أنّ الدين من أمر الله ورسوله؛ ليس لأحد

من الناس فيه حقّ تشريع بزيادة أو نقص أو ردّ أو نسخ، كما قال المّ تعالى ﴿لَا يَشْرِكُ بِكَ كَمَا شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ أَدْنَىٰ بِيَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ (الشورى: 21)؛¹ فليس الشرع تابعاً لأهواء العباد،

بل لا يصح إيمان العباد حتى يكون هواهم تبعاً لما جاء به محمدٌ تحكيماً وتسليماً، كما

وَرَبُّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَىٰ كَلِمَتًا حُرْمًا فِيهِ يُؤْكَفُ بِهِ كُرْحًا وَيُبَايِعُهُمْ غَيْرُ يَدَيْهِمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي

أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَىٰ اللَّهُ وَأَيُّ قُضِيٍّ لَّهُمْ وَأُتِيَ مَنًّا {النساء: 65} وتأمل عبارات (في أمرنا)

و(ليس عليه أمرنا) و(لما جئت به)، وعرضها على ما في كتاب الله تجددها متوافقة متطابقة:

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ {قَالُوا لَوْلَا آجِدُكُمْ يُؤْتِيهِم مَّا يُبَدِّلُونَ} وَإِنَّمَا أُقْبِعُ يَوْحَىٰ إِلَيَّ مِنْ

رَبِّي {الأعراف: 203} وعلمية نوال بعض الألفاظ وحيل ذناب منه اليأس بين {

الحاقة: 44، 45} وحاشا لسيّد المرسلين (ﷺ) من يتفكروا لأن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) أن يؤتيه الله

1 راجع ابن تيمية في [اقتضاء الصراط المستقيم].

لِحُكْمِ وَ النَّبِيُّوَّةَ الْكَلِمَةُ أَيُّهُ وَلَوْ اَللِّمَّاسِ كُوْنُوْا عِبَادًا لِّيْ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَ لَكِنْ كُوْنُوْا رَ بَّانِيَّيْنَ } (آل عمران: 79).¹

المطلب الرابع: الموعظة البليغة بمثابة الغيث النافع الذي يحيى الأرض بعد موتها:

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَعَفَ كَمَا بَقَالَ تَلَلُّكُ: ﴿ شَلَا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَحْرَةً طَيِّبَةً أَصْلُهُ مَا ثَابِتٌ وَ فَرَعُهُ مَا فِي السَّمِّ مَاءٌ تُؤْتِي إِذْنًا كَوْلَهُ بِهِ كَلَاوُ حِيْنَ رَبُّ اللّٰهُ اَلْمُ شَالُ لِّلنَّاسِ لِعَهْلِهِمْ يَتَذَكَّرُ وَن } (إبراهيم: 24، 25)، وقال النبي ﷺ: (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت العشب الكثير... حتى قال: فذلك مثل من فقيه دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم)، رواه البخاري في كتاب العلم. وفي رواية مسلسلة طيبة².

المطلب الخامس: شروط الموعظة النافعة:

ولكن لا بد من توفر شروط هامة في الخطيب، منها:

أولاً: البلاغة: كما جاء ههنا (وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً بليغة)، قال ابن رجب: "البلاغة في الخطبة مستحسنة؛ لأنها أقرب إلى قبول القلوب واستجلابها، والبلاغة هي التوصل إلى إيفهام المعاني المقصودة وإيضاحها إلى قلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدالة عليها وأفصحها وأحلاها للأسماع وأوقرها في القلوب".²

¹رحم الله العلامة محمد سعيد رمضان البوطي حيث نقل في كتابه القيرم (ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية) بحديث ابن عباس ؓ الذي رواه الشيخان في شأن هلال بن أمية ؓ حين قذف امرأته بشريك بن السحماء فحكم النبي ﷺ بينهما بالملاعة ثم قال: "رُ وها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ اللين خدج الساقين فهو لشريك بن السحماء، وإن جاءت به كذا وكنا فهو لهلال بن أمية. فجاءت به على النعت الأول فقال النبي ﷺ: (لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن) يريد بالشأن - والله أعلم - أنه يجدها لمشاهدة ولدها الرجل الذي رُ ميت به. ولقناعة وجدان الرسول ﷺ بذلك، ولكن كتاب الله أسقط كل قول وراءه فنفى هذا الحديث دليل قاطع على أن المجتهد وإن توهم المصلحة في حكم ما ليس له اتباع تلك المصلحة إذا كان في ذلك تجاوز عن حكم قضى به كتاب الله تعالى. حتى وإن كان ذلك المجتهد محمداً رسول الله ﷺ". (ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية ص 130 - 131).

² جامع العلوم والحكم ص 348.

ثانياً: حسن عرض الآيات والأحاديث وبيان المسائل الشرعية بحيث تنشرح العقول لتفهمها؛ وربّ دليل يُستعمل في باب دقيق لا يخطر على البال كصنيع البخاري في صحيحه فتتسوّق النفوس إلى سماعه وتزداد به انتباهها وفهماً .

ثالثاً: التزام التوثيق والأمانة العلمية وتعليم الناس محبة الدليل وذلك بالعزو إلى البخاري ومسلم والموطأ وغيرها من كتب العلوم . وهذا يكاد أن يكون مفقوداً . وأما تعميم الكلام والإغراق في الشعارات والميل إلى العبارات الفضفاضة فليس من العلم في شيء .

رابعاً: الحرص على الإيجاز في الكلام والاقتصار على القليل النافع كما أن قصير الخطبة مئة سنة فقه الخطيب، فكذلك التطويل والمبالغة في التكرار والإسهاب من غير حاجة مظهرية جملها وإذا كان أعظم خطيب لا يمل حديثه يلتزم بالإيجاز وهو يخاطب أحرص الناس على استماعه ممن يستزيدون ولا يضحون فيخاف عليهم السامة؛ فغيرهم من باب أولى. ولا شك أنّ تجاهل السنة في ذلك مدعاة إلى إملال الناس وتشويش أذهانهم من ناحية وسبب في الوقوع في الأخطاء والفسطة وخروج الخطيب عن المقصود واشتغال السامع بما لا ينفعه ولا يعنيه من ناحية أخرى. والله در ابن مسعود . ما كان أفقهه . فقد التزم بمذنب الأئمة في قوله وفعله كما أخرج البخاري في كتاب العلم (باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا)، أورد فيه حديث ابن مسعود قال: (كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة بالأيام كراهة السامة علينا)، وباب (من جعل لأهل العلم أياماً معلومة) ذكر فيه حديث أبي وائل قال: كان عبد الله يذكر الناس في كل خميس فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكّرتنا كل يوم قال: أما إنه بمنعني من ذلك أني أكره أن أملاككم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يخولنا بما مخافة السامة علينا". ورحم الله البخاري فقد ذكر هذين البابين بين ترجمتين: هما (باب العلم قبل القول والعمل)، و(باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) ولا يخفى عليك ما بين ذلك من المناسبة!

خامساً: إظهار الشفقة ورقة النفس وإخلاص النصيح. وقد كان النبي ﷺ يصنع هذا مع كفار قريش حتى خاطبه ربه بك بقوله لم يجزئني لؤساً لك ع لى آثارهم إن لم

المطلب السادس: المعاني التربوية:

في قول العرياض بن سارية τ وهو أحد البكائين . (وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون) بل على الوشيجة الرابطة بين القلوب الواجفة والعيون المياومة τ لم يؤنون τ بين الله إذوا ككلمت قلبوبهم لهذا τ (الأنفال: 2) τ أنزل إلى الرسة أول ترى τ الدمع ممّا عر فوا من الحق يقولون ربنا فأكثرتنا مع الشاهد من τ {المائدة: 83}. فبكاء العين علامة على معرفة القلب وحياته وصدقه. وقد قال النبي: (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا).

فللبكاء فقه عظيم وهو أنواع كثيرة، منها:

[1] بكاء الخوف من الله كما ترجم البخاري في كتاب الرقاق (باب البكاء من خشية الله عز وجل)، أورد فيه حديث أبي هريرة τ عن النبي p : (سبعة يظلهم الله في ظله...، وفيه: (ورجل ذكر الله ففاضت عيناه)، وفي أبواب المساجد (ذكر الله خاليا). قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "وقد ورد في البكاء من خشية الله على وفق لفظ الترجمة حديث أبي ریحانة رفقو τ مت النار على عين بكت من خشية الله) الحديث أخرجه أحمد والنسائي وصححه الحاكم، وللترمذي نحوه عن ابن عباس ولفظه لا (تمسها النار) وقال: حسن غريب، وعن أنس نحوه عند أبي يعلى، وعن أبي هريرة بلفظ (لا يلج النار رجل بكى من خشية الله) الحديث وصححه الترمذي والحاكم".¹

[2] بكاء الندم والشعور بالتفريط في جنب الله، كما كان شأن كعب بن مالك وصاحبيه τ حينما خلمفوا يوم تبوك، قال: (فأما صاحباي فاستكانا في بيوتهما يبكيان. وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلد هم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق حتى قال جلبي إذا طال علي ذلكم جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي وهواد بن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام.

فقليل أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحبَّ الله ورسوله؟ فسكت فعدتُ له فنشدته فسكت فعدتُ له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم ففاضت عيناى".¹

[3] بكاء الفرح بالتوبة أو بهداية من يجب: كما جاء في قول كعب بن مالك لما سمح صوت صارخ أوفى على جبل سَلَ مَع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر. قال: فخررت ساجداً وقد عرفت أنه جاء بفرح)، وعند أبي عائضٍ ساجداً فرحاً بالتوبة).² ومثل شأن أبي هريرة ؓ لما جاء إلى النبي ﷺ يشكو كفر والدته قال (فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي فقلت يا رسول الله إني كنت أدعو أمي للإسلام فتأبى عليّ فعدوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره)؛ فدعا لها النبي ﷺ فهداها الله للإسلام قال: (فأتيته وأنا أبكي من الفرح قال: قلت يا رسول الله أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة).³

[4] بكاء الشكوى والبثِّ والحزن: كما كان شأن يعقوب عليه الصلاة والسلام وَقَالَ يَا أَسْفَى عَافِي يُوَسِّتُفَى لِي وَابِي ضُتَّ عَيْ نَاهُ مِنْ الْحُزْنِ فَهُوَ وَكَظِيمٌ قَالُوا تَاللَّهِ حَتَّى تَكُونَتْ تَحًا تَدَكُّلًا أَوْ يُوسَكُونَنَّ مِنَ الْهَالِكِينَ قَالَ إِنَّمَّا أَشْكُو بِشَيْءٍ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ مِنْ أَعَالِهِمْ مَا لَا تَعْلَمُونَ {يوسف 84، وقد أخرج البخاري في (باب إذا بكى الإمام) حديث عبد الله بن شداد أنه سمع نسيح عمر وهو في آخر الصفوف يقرأ (إنما أشكو بشي وحزني إلى الله). وقد يكون بكاء يعقوب عليه الصلاة والسلام مما يأتي وهو:

[5] بكاء الرحمة والشفقة: ومن هذا بكاء النبي ﷺ عندما دخل على سعد يزوره في مرضه، وحينما وضعوا بين يديه وليدة ابنته وقد ماتت؛ فصارت نفسه تقعقع بأبي هو وأمى ﷺ. ومن ذلك كباي الصّدِّيق ؓ لما أخبر بوصول خبر الإفك إلى عائشة كما جاء في رواية هشام بن عروة قالت عائشة: (فاستعبرت وبكيت، فسمع أبو بكر صوتي وهو فوق البيت يقرأ فقال لأمي: ما شأنها؟ فقالت: بلغها الذي ذكر من شأنها. ففاضت عيناه).⁴

1 كتاب المغازي من البخاري [فتح الباري 454/8].

2 فتح الباري 463/8.

3 رواد مسلم في فضائل أبي هريرة [شرح النووي 52/16].

4 فتح الباري 405/9.

[6] بكاء المراقبة لله واستشعار عظمته والتفكير في نعمائه وآلائه والنظر في العواقب والمآلات. وقد فاز النبي ﷺ من هذا بالحظ الأكبر وحاز على النصيب الأوفر؛ لمكان فقهه ρ كما قال: (أما إني أتقاكم لله وأعلمكم به)، وقال (لو تعلمون ما أعلم...). وقد قرأ عليه فَلَيْكِيْ فَصَعُوْدِيْ ذَلَا جِئْنَا مِنْ كُثُلٍ يَلْمُهُ وَبِحَجْمِنَا بِكَ لَمَعِي هُوَ لَأَشَدَّ مِنْ يَدِيَّ {النساء: 41} فإذا عيناه تذرطان، ثم من بعده أبو بكر ρ كما قالت عائشة: (إنَّ أبا بكر رجل رقيق) وفي رواية أخرى: (يف إذا قرأ القرآن لم يملك عينيه) من ذلك بكاء أبي τ لما أخبره النبي ﷺ بأن الله أمره أن يقرأ عليك لئلا يذنب بك كفرًا، قال: الله سماني لك؟ قال: الله سماك لي. قال فجعل أبي يبكي، قال النووي: "أما بكاؤه فبكاء سرور واستصغار لنفسه عن تأهيله لهذه النعمة وإعطائه هذه المنزلة. والنعمة فيها من وجهين: أحدهما كونه منصوباً عليه بعينه؛ ولهذا قال (سماني؟) مغضوباً عليّ بعيني أم قال: اقرأ على واحد من أصحابك قال: سماك. فترايدت النعمة. والثاني: قراءة النبي ρ فإنها منقبة عظيمة لم يشاركه فيها أحد من الناس، وقيل: إنما بكى خوفاً من تقصيره في شكر هذه النعمة".¹

[7] بكاء التحسر على ذهاب الخير وأهلوقد كان للصمد يقطن ذلك خير كثير، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد أن رسول الله ﷺ صعد على المنبر فقال لعبدٍ حياً لله بين أن يؤتية من زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده؛ فبكى أبو بكر وبكى فقال: قد فديناك بأبائنا وأمهاتنا قال فكان رسول الله ﷺ هو المخير وكان أبو بكر أعلمنا به. وروى مالك في الموطأ أن النبي ﷺ قال لا (دري ما تحمدون بعددي)؛ فبكى أبو بكر ثم بكى فقال: أئذنا لكائنون بعدك؟² ومن ذلك ما رواه الشيخان عن أنس ρ قال: قال أبو بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر: (انطلق بنا إلى أم أيمن نزرها كما كان رسول الله ﷺ يزورها. فلما انتهينا إليها بكت فقالتا لها ما يبكيك؟ ما عنلله خير لرسول الله ﷺ فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ ولكن أبكي

1 شرح النووي على مسلم 21/16.

2 قال ابن عبد لير: مرسل عند جميع الرواة، لكن معناه يستند من وجود صحاح كثيرة [الموطأ بتعليق فؤاد عبد الباقي ص 462].

اللّوحيّ قد انقطع من السماء، فهجّتهّهما على البكاء؛ فجعلنا بيكيان معها)، قال النووي: "فيه زيارة الصالحين وفضلها، والبكاء حُزناً على فراق الصالحين والأصحاب وإن كانوا قد انتقلوا إلى أفضل مما كانوا عليه".¹

[8] بكاء الشفقة على النفس من سوء الخاتمة: كما روى مالك في آخر كتاب الجامع من الموطأ حديث عمر بن عبد العزيز (حين خرج من المدينة التفت إليها فبكى ثم قال: يا مزاحم أتخشى أن نكون ممن نفت المدينة؟)²؛ لأنّ المدينة تنفي خبثها كما جاء في الحديث مع أنه من مسكها وعبرها ومن ذلك بكاء الجنيد بين يدي السري السقطي وكان غلاماً قال الذهبي في ترجمة الجنيد من (السير) فسأله عن الشكر فقال: "الشكر أن لا تستعين بنعم الله على معصية اللّفقّال له السريّ: أخشى أن يكون حظك من الله لسانك؛ قال: فما ذكرت ذلك إلا بكيت!"

وهذا بابٌ واسعٌ، وهو من العلم النافع ورحم الله النووي ما أحسن قولَه عن البكاء: إله صفة العارفين وشعار عبادة الله الصالحين؛ قال الله بحالي زورن لا الأذقان بيكون ويزيد هُم خُشوعاً {الإسراء: 109}.³

1 شرح النووي على مسلم 10/16.

2 الموطأ ص 889.

3 بيبيان في آداب حَمَلَة القرآن للنووي 45-46.